الفصل الثانى

« قواعد الفصاحة »

سنحاول إن شاء الله أن نتبع قواعد الفصاحة متخذين فى ذلك ماصارت اليه عند القزوينى وشراح التلخيص — المعيار الذى يمكن أن نقارن به مراحل تطور تلك القواعد ، محاولين أن نوصل منها ما نملك تأصيله .

ونحن فى محاولتنا تلك سنلتزم بالتقسيم التقليدى الذى استقر فى القرنين السابع والثامن أى أننا سنتناول القواعد الخاصة بفصاحة المفرد ثم ما يخص فصاحة الكلام ، وأخيرا ماقد يتعلق بفصاحة المتكلم من شروط وقواعد .

اولا — القواعد التى يشترط وجودها فى المفرد :

١ — الخلوص من تنافر الحروف :

أصل « التنافر » فى اللغة هو التفرق والإعراض ، أما التنافر فى الفصاحة الذى يشترط خلوصها منه فهو الذى يسبب ثقلا فى اللسان وعسرا فى النطق ويسمى الجاحظ الخلو من التنافر اقترانا سواء للحروف أم للألفاظ كما فى قوله : « . . . فهذا فى اقتران الألفاظ فأما فى اقتران الحروف فإن الجيم لاتقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير ، والزاى لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير . . »[1] .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٩ .

والجاحظ هو أول من تنبه من البلاغيين إلى التنافر الذى ينشأ بين الحروف والألفاظ بصورة كاملة منظمة ولقد شاع لفظ التنافر بعد الجاحظ الذى استخدمه ليدل به على وصف الألفاظ والحروف من هذه الناحية . فلقد جمع لنا طائفة من الشعر تظهر ذم الألفاظ التى لا تأتلف فلقد وصفها القدماء ببعر الكبش مثل قول أبى الهداء الرياحى .

وشعرٍ كبعرِ الكبشِ فرَّقَ بينَهُ لسانٌ دَعِىٌّ فى القريضِ دخيلِ

كما شبهوها بأولاد العلة كما فى البيت الآتى :

وبعضُ قريضِ القومِ أولادُ عَلَّةٍ يكِدُّ لسانَ الناطقِ المتحفِّظِ

وأولاد العلة هم بنو الرجل الواحد من أمهات شتى .

وقد يسمى عدم التنافر « التلاؤم » كما فعل أبو الحسن على بن عيسى الرمانى حيث جعله القسم الرابع من أقسام البلاغة ، والتلاؤم عنده نقيض التنافر وتعديل الحروف فى التأليف[٢] .

ولقد نقل هذا القول أبو بكر الباقلانى موسعا معنى التلاؤم ليضم أشياء أخرى غير الخلوص من التنافر[٣] .

ولقد تناول بهاء الدين السبكى هذه التسمية معترضا على لفظة « خلوص » فى تعريف القزوينى للفصاحة « خلوصه من تنافر الحروف .. » وذلك لأن كلمة خلوص فى نظره تعريف بالأمور العدمية ويرى أن التعريف يكون بالذاتيات أو الخواص الوجودية ، ويرى أنه كان ينبغى أن يقول القزوينى فى تعريف الفصاحة « الفصاحة التئام الحروف وكثرة الاستعمال وموافقة القياس »[٤] .

---

(٢) ثلاث رسائل فى الاعجاز ص ٨٧ .
(٣) اعجاز القرآن ص ٢٨٦ .
(٤) شروح التلخيص ص ٧٧ .

فالخلوص من التنافر قد سماه الجاحظ بالاقتران كما ذكر لفظة التنافر وحذر منها وأسماه الرماني التلاؤم . وأخيراً أطلق عليه السبكى لفظة « التئام » .

أما عن أقسام تنافر الحروف فلقد جعله القزوينى قسمين : قسم تكون اللفظة بسببه متناهية فى الثقل ، والقسم الثانى هو مادون ذلك من الثقل .

ومن أمثلة القسم الأول ما روى عن الخليل بن أحمد ونقله عنه ابن سنان حيث قال الخليل سمعنا كلمة شنعاء وهى « الهُعْخُع » ، ولقد جعل الخفاجى هذه اللفظة مثالا على المهمل الذى يصعب النطق به « لضرب من التقارب فى الحروف فلا يكاد يجىء فى كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم ، وثقله .. »[٥] .

وينكر الخفاجى تأليف كلمة « الهمخع » على هذه الصورة ، كما أنكرها الثقات من العلماء وقالوا : نعرف الخمخع ، وهذا أقرب إلى تأليفهم ، لأن الذى فيه حرفان حسب ، وحروف الحلق خاصة مما قل تأليفهم لها من غير فصل يقع بينها[٦] .

ويورد السبكى أن هذه الكلمة « الهمخع » قد وردت عند الصغانى فى كتابه المسمى الصحاح بلفظ « العمخ » ، ويذكر السبكى أن الثقاة من كلام العرب قد أنكروا هذا الاسم[٧] .

ويذكر السبكى أن كلمة « الهمخع » قد وردت بصورة رابعة هى « العمخع » ويرى أن الصورتين الأخيرتين فيهما غرابة[٨] .

---

(٥) سر الفصاحة ص ٤٨ .
(٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .
(٧) شروح التلخيص ص ٧٩ .
(٨) شروح التلخيص ص ٧٩ .

ومن أمثلة القسم الثانى التى توقف عندها علماء البلاغة كلمة (مستشزرات) التى جاءت فى معلقة امرىء القيس فى قوله :

غدائره مستشزرات الى العلا تضل المدارى فى مثنى ومرسل[٩]

وتروى مستشزرات بفتح الزاى أى مرفوعات ، وبكسرها أى مرتفعات .

ويرى السبكى أن الثقل فى كلمة مستشزرات ناتج عن توسط الشين وهى مهموسة رخوة بين التاء وهى مهموسة شديدة ، والزاى وهى مجهورة[١٠] .

أما عن العلة فى تنافر الحروف فلقد حدث خلاف فى تقرير العلة الحقيقية فى التنافر ، ولقد نقل ابن سنان رأى الخليل بن أحمد فى ذلك ونقده بعد ذلك ، ويرى الخليل : « أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ، ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال »[١١] .

ويأخذ الرمانى برأى الخليل من غير تحفظ ، أما الخفاجى فإنه يوافق على رأى الخليل والرمانى من بعده من ناحية واحدة فقط عندما يقرر أن التنافر ينشأ من قرب مخارج الحروف ، لكنه يخالف ما ورد عن الخليل والرمانى فيما ذكراه عن بُعد المخارج : « ... والذى أذهب أنا اليه فى هذا ما قدمت ذكره ولا أرى التنافر فى بُعد ما بين مخارج الحروف ، وإنما هو فى القرب ، ويدل على صحة ذلك الاعتبار ، فإن هذه الكلمة — ألم — غير متنافرة ، وهى مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج ، لأن الهمزة من أقصى الحلق ، والميم

---

(٩) ديوان امرىء القيس ص ١٧ ط دار المعارف سنه ١٩٦٩ .
(١٠) شروح التلخيص ص ٧٨ .
(١١) ورد هذا النص حرفيا فى ثلاث رسائل ص ٨٨ وفى سر الفصاحة ص ٩١ .

من الشفتين ، واللام متوسطة بينهما ، وعلى مذهبه كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافرا ، لأنه على غاية ما يمكن من البعد ، وكذلك — أم وأو — لأن الواو من أبعد الحروف عن الهمزة ، وليس هذان المثلان مثل - عج ولا سز - لما يوجد فيها من التنافر لقرب ما بين الحرفين فى كل كلمة ، ومتى اعتبرت جميع الأمثلة لم تر للبعد الشديد وجها فى التنافر على ما ذكره »[١٢] .

ويرى السبكى أن كلام ابن سنان الخفاجى ليس مطلقا ، بل يورد السبكى أمثلة لبعض الكلمات التى تتكون من حروف قريبة المخرج وخالية من التنافر مثل كلمة « الشجر » و « الجيش » و « الفم » ، كما أورد مثالا على الحروف المتباعدة مع القبح الذى يصاحب اللفظة مثل كلمة « ملع » بمعنى أسرع .

ويرى السبكى ما رآه الخليل والرمانى بأن التنافر قد يكون فى الحروف المتقاربة والحروف المتباعدة على سبيل الغلبة لا اللزوم[١٣] .

لكنه يعود مرة ثانية إلى ترجيح ما ذهب اليه ابن سنان الخفاجى قائلا : « .. وحيث دار الحال بين الحروف المتباعدة والمتقاربة ، فالمتباعدة أخف ، حتى جعل جماعة تباعد مخارج الحروف من صفات الحسن ، ونقله ابن الأثير فى كتاب البلاغة عن علماء البيان ، وقال الخفاجى إنه شرط للفصاحة .. »[١٤] .

والحقيقة أن ابن الأثير قد نقل رأى الخفاجى وكأنه يرد عليه فقال : « قد ذكر ابن سنان الخفاجى ما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف ... أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه ... ولهذا أسقط الواضع حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه ، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ،

---

(١٢) سر الفصاحة ص ٩١ .
(١٣) شروح التلخيص ص ٨٢ .
(١٤) شروح التلخيص ص ٨٢ .

ولا بين الزاى والسين ، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب .. »[١٥] .

ويرى الخفاجى أن تأليف الحروف ثلاثة أقسام :

الأول : تأليف الحروف المتباعدة ، وهو الأحسن المختار ، وهو أغلب كلام العرب كما يذكر السبكى .

الثانى : تضعيف هذا الحرف نفسه ، وهو يلى هذا القسم فى الحسن .

الثالث : تأليف الحروف المتجاورة ، وهو إما قليل فى كلامهم ، أو منبوذ رأسا لما قدمناه[١٦] .

ولقد نقل ابن جنى هذا التقسيم فى كتاب سر صناعة الإعراب مستدلا به على ما فعله بنو تميم عندما أرادوا إسكان عين « معهم » كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حاءين فقالوا : « محمّ » ، فرأوا ذلك أسهل من الحرفين المتقاربين .

ويؤكد ابن سنان الخفاجى رأيه بأن كلام العرب قد خلا من تراكيب الحروف المتجاورة فى مخارجها مثل الصاد والسين والزاى ، ولا يوجد فى كلام العرب كلمات مثل : « سصّ » ولا « صس » ، ولا « سز » ، ولا « زس » ، ولا « زص » ولا « صز » .

وواضح من هذه الأمثلة التى ساقها الخفاجى صدقه على تنافر الحروف المتقاربة المخارج ، كما يتأكد رأيه فى كون تباعد المخارج من صفات الحسن والخفة .

وسنتناول التنافر — إن شاء الله — من جانب آخر هو جانب الصوتيات وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بالأصوات اللغوية .

---

(١٥) المثل السائر ص ١٥١ ـ ص ١٥٢ ط محيى الدين عبد الحميد .
(١٦) سر الفصاحة ص ٤٨ .

٢ ـ الخلوص من الغـرابة :

وأصل كلمة « الغرابة » يرجع إلى مادة « غرُب » بالضم وهى مصدر لهذه المادة وهى تفيد البعد عن الوطن، كما تفيد الكلام البعيد عن الفهم ولقد شاعت لفظتا الغرابة والغريب بين البلاغيين واللغويين كثيرا .

وتشير النصوص إلى أن الجاحظ أول من استخدم هذه المادة ليدل بها على الكلام الخارج عن البلاغة ، كما نبّه إلى مدى خطرها وفسادها ،ويدل على ذلك تعليقه على بعض الأقوال التى تتضمن ألفاظا غريبة فيقول : « . . فإن كانوا رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغـــة والفصاحة .. وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجّاج ، وشعر الطّرمّاح ، وأشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الوصف على أكثر من ذلك[١٧] .

وكما لاحظ الجاحظ أن اللفظ الغريب يبعد عن الفصاحة نراه يلاحظ أيضاً أن المعنى الغريب له نفس الأثر ، فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى، ولا تجعل همّك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى . وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه .. »[١٨] .

فالجاحظ يعد أول من اشترط فى اللفظة الفصيحة أن تكون خالية من الغرابة وبذلك فتح الجاحظ آفاقا واسعة لمن جاء بعده ليضيفوا الجديد فى ميدان الغرابة .

لكننا نتساءل : ما المقياس الذى تقاس به الكلمات حتى يحكم عليها بالغرابة أو عدمها ... ؟

---

(١٧) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٧٨ .
(١٨) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٥٥ .

لقد قرر جماعة من البلاغيين أن الغرابة يجب أن تحمل بالنسبة للعرب العرباء الخلص من أهل البادية ، ولا تحمل بالنسبة لاستعمال الناس من مولدين وغيرهم ، ومن هؤلاء العلماء الجاحظ والسبكي والسيوطي وابن يعقوب المغربي . وهم بذلك يجعلون الغرابة مطلقة لأن كلام العرب العرباء عندهم هو المقياس المطلق الذي ينسحب على كل العصور .

ويقرر ابن يعقوب المغربي في موضع آخر أن الغرابة قد تكون نسبية ، فقد تكون الكلمة غريبة على المولدين لكنها فصيحة مستحسنة عند العرب الخلص[١٩] ، وهو بذلك يتردد بين النسبية والإطلاق .

والواقع أن كلمة « غرابة » يختلف مدلولها من جيل إلى جيل ، ومن بيئة إلى بيئة أخرى ، كما أنها ترتبط بالأحداث الاجتماعية التي تترك أثرها على البحث العلمي ، فتؤدي أحيانا إلى العمق ، وأحيانا أخرى تؤدي إلى الضحولة ، ومن هنا لا يكون اللفظ غريبا على وجه الاطلاق ، فيجب علينا قبل أن نحكم على اللفظة بالغرابة أن نضع في حساباتنا الملابسات التي أحاطت باللفظة عبر تاريخها الطويل وإلى تلك الظروف التي أشرنا اليها على جملتها ، وبذلك نرى أن كل جيل له كلمات يعدها غريبة وينبغي عدم استعمال هذه الكلمات لأن استعمالها لا يعد فصاحة

وإذا أردنا أن نوضح مفهوم الغرابة فاننا نتساءل : ما العوامل التي قد تؤدي باللفظة إلى الغرابة ... ؟

نستطيع أن نجمل هذه العوامل فيما يأتي :

العامل الأول : كون الكلمة وحشية :

وكون الكلمة وحشية أي أن معناها لا يظهر بسبب كونها غير مأنوسة الاستعمال عند من تكون الكلمة وحشية لديهم ، وينتج عن كون الكلمة وحشية أن يحتاج في معرفتها الى أحد هذين الشيئين :

(١٩) شروح التلخيص .

(ا) أن يبحث عنها فى كتب اللغة .

(ب) أن يخرّج لها وجه بعيد .

ومن أمثلة القسم الأول ما أورده الجاحظ عن يحيى بن عمر وأبى علقمة النحوى وأبى الأسود الدؤلى ، ونقل البلاغيون ما أورده الجاحظ عن أبى علقمة النحوى ونسبوه إلى عيسى بن عمر عندما كان مارّا ببعض طرق البصرة ، وهاجت به مِرّة ، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضون إبهامه ويؤذنون فى أذنه ، فأفلت منهم فقال : « ما لكم تتكأكأكئون علىّ كما تتكأكأكئون على ذى جنّة ، افرنقعوا عنى .. » فقال أحدهم : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية[٢٠] .

ونقل هذا الخبر كثيرون مثل العسكرى والخفاجى والجوهرى والزمخشرى كما استدل به شرّاح التلخيص . والغريب الذى لا يعرف إلا بالبحث فى كتب اللغة المبسوطة قوله : تتكأكأكئون بمعنى تتجمعون ، وقوله : افرنقعوا بمعنى تفرقوا .

وينقل السبكى عن الزمخشرى تفسيره لكلمة « افرنقعوا » بأنها مأخوذة من حروف الفرقة مع زيادة العين ، ويبطل السبكى هذا التفسير بقوله « العين ليست من حروف الزيادة »[٢١] ويرى الجوهرى أنها مشتقة من فرقعة الأصابع .

ومثل هذه الألفاظ الغريبة كثيرة فى شعر العجاج وابنه رؤبة ، وكان من شعراء العصر العباسى من يلجأ للغريب كأبى تمام والمتنبى ، ومن غريب أبى تمام كلمة « كهل » فى قوله :

---

(٢٠) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .
(٢١) شروح التلخيص ص ٨٧ .

لقد طلعتْ فى وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل
وساوسُ آمال ومذهب همة تخيل لى بين المطية والرحل

وكلمة دردبيس وقِنْطر فى قول أبى تمام أيضا :

بِندَاك يوسى كل جرح يعتلى رأب الأساة بدردبيس قِنْطر

وقوله قدْكَ فى البيت الآتى :

قَدْكَ اتَّئِبْ أربيتَ فى الغُلواء كم تعْذلونَ وأنتُمُ سُجرَائى

ومن أمثلة الغريب أيضا قول جرير :

وضع الخزير فقيل أين بجاشع فشحا جحافله جراف هبلع

ومثل كلمة « بوزع » التى وردت فى قول جرير أيضا :

وتقول بوْزع قدضربتَ على العصا هلاّ هزئتِ بغيرنا يا بوزعُ

وقيل إن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك ببوزع[٢٢] مع أن كلمة بَوْزع علم لامرأة ، لكن عبد الملك بن مروان قد استغربه .

ومن أمثلة القسم الثانى الذى يخرجّ له وجه بعيد حتى يظهر معنا ، كلمة « مسرّجا » التى وردت فى بيت العجاج :

أيام أبدت واضحا مفلجا أغر برّاقا وطرْفا أبرجا
ومقـــلةً وحاجبا مزجّجا وفاحمـــا ومَرْسِناً مسرّجا

فلقد اختلف فى تخريج قولة « مسرّجا » ، فقيل :

(أ) من قولهم سريجية أى منسوبة إلى قين يقال لها : سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى .

ويرى صاحب مواهب الفتاح أن الغرابة فى قوله « مسرّجا » لعدم جريانه

---

(٢٢) سر الفصاحة ص ٥٩ .

على النظير فمن المعلوم أن « فعل » للنسبة لا يكون على سبيل التشبيه مثل : تممته فهو متمم أى نسبته إلى تميم . أما إذا كانت (فعّل) بمعنى صار كذا كقوّس صار كالقوس — فلا يصح ، إذ الواجب أن يقال : مسرِّجا بكسر الراء لعدم تعديه والرواية بالفتح ، ثم فسر مسرجا على الاحتمالين بقوله : أى كالسيف السريجى فى الدقة والاستواء[٢٣] .

(ب) فسر قوله « مسرّجا » بتشبيهه بالسراج فى البريق واللمعان ، وتفسير الأنف وتشبيهه بالسراج فيه غرابة .

(جـ) وجاء فى معنى « سرّج » أنها بمعنى بهّج وحسّن ، يقال : سرّج الله أمرك أى بهجه وحسنه . وقيل إن سرّج بمعنى حسّن يحتمل أن يكون مستحدثا[٢٤] .

وكلمة « مسرّجا » غريبة على أى وجه من الوجوه ، فلقد نقلها الأئمة وتمثلوا بها على الغرابة سواء كانت اللفظة قديمة أم مستحدثة .

العامل الثانى : الكلمات الاصطلاحيـة :

وهى الكلمات التى تفهمها طائفة دون أخرى ، وتكون لها دلالة ترتبط بثقافتهم أو مهنتهم الخاصة بهم ، ومن ثم أصبح الكلمة الاصطلاحية غريبة على أسماع وفهم عامة المثقفين والأدباء والعرب الخلص .

وأول من أدرك ما ينتج عن الكلمات الاصطلاحية من غرابة — أبو عثمان الجاحظ ولم يتبعه فى رأيه هذا إلا ابن سنان الخفاجى ، لكن عامة البلاغيين قد ردوا الغرابة إلى الوحشى من الألفاظ فقط .

واستدل الجاحظ على غرابة هذه الألفاظ باستعمال بعض الخطباء لألفاظ

---

(٢٣) شروح التلخيص ص ٨٤ ـ ص ٨٥ .
(٢٤) شروح التلخيص ص ٨٧ .

المتكلمين . ونهى الجاحظ عن ذلك المسلك قائلا : « وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد ، أو يوم السماطين ، أو على منبر جماعة ، أو فى سدة دار الخلافة أو فى يوم جمع حفل ، إما فى إصطلاح بين العشائر ، واحتمال دماء القبائل ، واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم رفيع المكان : ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكّن لهم لاشاهم فتلاشوا » .

ويسخر الجاحظ من خطيب آخر قد خطب فى دار الخلافة فقال فى خطبته : « وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله فى باب الأيسية » .

ويهاجم خطيبا ثالثا لأنه قال فى خطبة له : « هذا فرق بين السار والضار ، والدفّاع والنفّاع (٢٥) .

ومثل هذه الألفاظ التى وردت فى خطب الخطباء غريبة على أسماع الحاضرين ولا تناسب المقام الذى قيلت فيه ، ولا يجوز استعمال مثل هذه الألفاظ إلا بين المتكلمين أنفسهم فهم القادرون على إدراك مدلولاتها .

ويرى الجاحظ أن مثل هذه الألفاظ قد تحسن أحيانا فى مقام التلاح والتظرف كما فعل أبو نواس فى استعمال ألفاظ المتكلمين كقوله(٢٦) .

وذات خدّ مورّد ... قوهيّة المتجرّد

تأمّلُ العينُ منها ... محاسنا ليس تنفد

فبعضها قد تناهى ... وبعضهـــا يتولّد

والحسن فى كل عضو ... منها معاد مردد

وكقوله :

---

(٢٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠١ .

يا عاقد القلب منى هلا تذكرت حلاّ
تركت منى قليلا من القليل أقلاّ
يكاد لا يتجزا أقل فى اللفظ من لا

العامل الثالث : الألفاظ الدخيلة من اللغات واللهجات الأجنبية :

وهذا العامل ينشأ عن احتكاك وتداخل الشعوب، واختلاط الثقافات الذى من سماته أن يترك ألفاظا فى البيئة الجديدة ، والألفاظ التى يحملها أصحابها فى البيئة الجديدة تظل غريبة فى معناها وبنائها ،وفى الحقيقة أن أية لغة لا تستطيع مقاومة تيار الأخذ والعطاء بينها وبين اللغات التى قد تحتك بها ، لأن التطور الحضارى يدفع اللغات إلى ذلك ، وخاصة تلك اللغات التى يعانى المتكلمون بها من التخلف ومن ثم تعجز اللغة عن ملاحقة التطور باستحداث الألفاظ المناسبة لذلك ، كما أن اللغات التى تعيش فى مجتمعات متطورة لا تستطيع أن تقاوم غزو اللغات الأخرى أيضا لكن تعرضها لذلك يكون أقل .

وفى مقابل ذلك تموت ألفاظ كثيرة لا ترتبط بالحياة الاجتماعية أو الحضارية أو الدينية ، ولقد شغل علماء اللغة ببحث الدخيل الأجنبى فى العصور المتأخرة لكننا نجد الجاحظ قد نبّه على ذلك ، وأورد كلمات فارسية كثيرة قد شاعت فى البصرة والكوفة والمدينة لنزول ناس من الفرس فيهم . ولذلك نجد رجلا مثل محمد بن مناذر الشاعر يرى أن الفصاحة فى أهل مكة فقط ، وأن ألفاظ المكيين أحكى لألفاظ القرآن الكريم وأكثرها موافقة ، ويقول ابن مناذر مخاطبا أهل البصرة : « أنتم تسمون القِدْرَ بُرْمَة وتجمعون البُرْمَة على بِرَام ، ونحن نقول قِدْر ونجمعها على قدور ،وقال الله عز وجل : « وجفان كالجواب وقدور راسيات » ، وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت عُلِيَّة وتجمعون هذا الاسم على عَلالِىّ ، ونحن نسميه غرفة ونحن نجمعها على غُرفات وغُرَف ، وقال الله تبارك وتعالى : « غُرفٌ من فوقِهَا غرف مبنية ، وقال : « وهم فى

الخُرفَات آمنون، ، وأنتم تسمون الطَّلْعَ الكافورَ والإغريض، ونحن نسميه الطلع وقال تبارك وتعالى : ونخل طلعها هضيم[٢٧] .

كما يورد الجاحظ عن ابن مناذر الألفاظ الدخيلة التى شاعت فى بيئة الكوفة والمدينة ، مستدلا بذلك على فصاحة أهل مكة .

وهذه الألفاظ غريبة على العرب الخلص الذين لم تتلوث لغتهم بالدخيل من اللغات الأجنبية الأخرى . وتظل هذه الألفاظ غريبة حتى ينفذ فيها حكم الانتقاء الطبيعى والتطور .

وقد يلجأ بعض الشعراء إلى إدخال الألفاظ الأجنبية عمدا فى شعرهم على سبيل التملح والتظرف بها كما فعل العمانى عندما ضمن شعره بعض الألفاظ الفارسية مثل قوله فى قصيدته التى مدح بها الرشيد[٢٨] .

منْ يَلْقَه من بطَلٍ مُسْرَنْدِ فى زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بالسَّرْدِ

تجول بين رأسه والكَرْدِ

وفى هذه القصيدة يقول أيضا :

لمّا هَوَى بَيْن غياض الأسْد وصار فى كفّ الهزبر الوَرْد

آلَى يذوق الدَّهْرَ آب سَرْد

وكقول يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى[٢٩] :

آب اسْتْ نَبيذَ اسْتْ عصاراتِ زبيب است

سَمَنِيَّه وَسَبيد اسْتْ

---

(٢٧) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩ .
(٢٨) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٢ .
(٢٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٣ .

العامل الرابع : اللكنـــة :

اللكنة فى الحقيقة من عيوب المتكلم وليست من عيوب الكلمة لأن عيوب الكلمة صفة ثابتة فيها لكن قد تصير الكلمة الفصيحة غريبة بسبب ما يصيبها من لُكْنة عندما ينطق بها غير الفصيح مثل الأعاجم أو العرب الذين نشأوا بين الأعاجم ، أو من أصابتهم عوارض فى الفم أو اللسان ، فمن الأعاجم الشاعر زياد بن سلمى الذى كان يجعل السين شينا أو الطاء تاء فكان عندما ينشد قوله :

فتى زاده السلطان فى الود رفعة اذا غيّر السلطان كلّ خليل

فانه يقول : « فتى زاده الشّلتان » .

ويورد الجاحظ مجموعة من الكتاب والشعراء والأعاجم ممن لا يستطيعون التخلص من لكنتهم ، وكانوا يقلبون الحاء هاء والسين شينا والشين سينا ، والقاف كافا والذال دالا ، ويورد الجاحظ فى هذا المقام قول بعض الشعراء فى أم ولد له يذكر لكنتها :

أول ما أسمع منها فى السحر تذكيرُها الأنثى وتأنيث الذكر
والسّوءةُ السّوآءُ فى القمر

وقد تكون اللكنة بتغيير حركة مثل ما يورده الجاحظ عندما فتح النبطى المكسور ، فلقد قيل له :لم ابتعت هذه الأتان ..؟ قال : أركبها وتلَد لى فقال: « تلَد » ولم يقل « تلِد » .

والعربى الفصيح من أهل البادية لا يفهم مثل هذا الكلام الذى قد تغير فهو غريب عليه ، ويحكى الكسائى أنه قال لغلام بالبادية : من خلقك... ؟ وجزم القاف : فلم يدْرِ الغلام ما قال ، ولم يجبه ، فأعاد الكسائى عليه السؤال ، فقال الغلام : اهلك تريد : من خلَقَك ...(٣٠) .

---

(٣٠) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٤ .

ويروى أنه قيل لأعرابى: «كَيْفَ أهْلِك» بكسر اللام، أجاب الأعرابى: «صَالِباً»، فلقد أجاب الأعراب على فهمه، ولم يعلم أن السائل أراد السؤال عن أهله وعياله(٣١).

فاللكنة قد تؤدى إلى الغرابة عند الذين لم يتعودوا الفاسد والمعدول عن أصله.

هذه هى العوامل التى نرى أنها تؤدى إلى الغرابة. وربما يؤدى بعضها إلى أشياء غير الغرابة — قد تكون سببا فى فساد الفصاحة، فقد تؤدى اللكنة إلى عدم الجريان على القياس اللغوى، وقد تؤدى المصطلحات الفنية إلى التعقيد.

ويرى ابن يعقوب المغربى أن الغرابة قسمان:

١ — غرابة قبيحة مستكرهة ذوقا لعدم تداولها فى لغة خلص العرب وهم أهل البادية دون المولدين، وهذه الغرابة مخلة بالفصاحة مطلقا مثل كلمة «جحيش» للفريد أى المستبد بأمره الذى لا يشاور الناس فى رأيه.

٢ — غرابة مستحسنة، وهى غير مخلة بالفصاحة بالنسبة إلى العرب الخلص لكنها قد تكون غريبة بالنسبة للمولدين، ومن هذا الغريب المستحسن غريب القرآن والحديث الشريف(٣٢).

فالغرابة المستحسنة إذن نسبية، أى أنها غريبة عند قوم وهم المولدون، وحسنة عند العرب الخلص.

ولا يعنى اشتمال القرآن الكريم والحديث الشريف على الغريب أنه يشتمل على غير الفصيح، لأن غريب القرآن فصيح بالنسبة للعرب جملة لأن القرآن نزل بلغة العرب جملة، وإن كان غالب القرآن قرشيا، ولغة قريش شائعة

---

(٣٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦٣.
(٣٤) شروح التلخيص ص ٨٣ — ص ٨٤.

بين العرب لمكانتهم بينهم . وإذا كان الأمر كذلك فما درجة فصاحة غريب القرآن ... ؟

يرى صاحب مواهب الفتاح أن غريب القرآن فصيح لكنه أقل من غيره فى الفصاحة ، لأنه من المسلم أن القرآن متفاوت فى نفسه فى البلاغة والفصاحة[٣٣]

فغريب القرآن فصيح عند أكثر العرب من أهل البادية وهم الذين يعتد بهم وقت نزول القرآن . أما عند المولدين وبعض العرب فهو غريب . وهؤلاء لا تقاس الغرابة بالنسبة اليهم ، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم .

ومع أن استعمال العرب الفصحاء هو مقياس الغرابة وعدمها عند جمهور البلاغيين إلا أن ابن درستويه قد ذكر فى شرح الفصيح لثعلب أن الفصاحة ليست فى كثرة الاستعمال ولا قلته ، وقد يلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها[٣٤] .

ولقد انتبه الجاحظ إلى ذلك فى البيان والتبيين ، ولكن ما يريده الجاحظ وابن درستويه لا يقصد به فى التعميم وإنما هو احتمال له ظروفه وملابساته .

هذه بعض الآراء التى تختلف فى كون الغرابة مطلقة أو نسبية وهى آراء تستحق الوقوف عندها لمناقشتها لكنها تحتاج إلى بحث مستقل مستفيض نسأل الله أن يعيننا على إنجازه . ومع ذلك فإننا نرجح نسبية الغرابة كما أشرنا آنفا .

٣ ـ الخلوص من مخالفة القياس اللغوى :

أى أن تكون الكلمة جارية على النحو الذى يرتضيه أهل اللغة ، وتكون الكلمة مخالفة إذا لم تكن على هذا السبيل . لكن ما القانون الذى يتقرر به حكم المفردات اللغوية .. يرى جمهور اللغويين والبلاغيين أن ذلك يتقرر بقانونين:

---

(٣١) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٣٢) المزهر للسيوطى جـ ١ ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

(ا) القوانين الصرفية والنحوية .

(ب) كثرة استعمال العرب الفصحاء الذين يعتد بكلامهم .

ولذلك نرى رجلا كابن يعقوب المغربى يحدد المخالفة فى عبارة تشمل القانونين وهى قوله : « المخالفة كون الكلمة على خلاف ما يثبت فيها عن الواضع بالاستعمال الكثير[٣٥] .

لكن رجلا كالسبكى لا يرى أن مخالفة القياس تخل دائما بالفصاحة ، فقد توجد الفصاحة فيما خالف القياس . فمتى تكون مخالفة القياس مخلة بالفصاحة فى نظر السبكى ... ؟

يرى بهاء الدين السبكى أن مخالفة القياس إنما تخل بالفصاحة حيث لم تقع فى القرآن الكريم[٣٦] . أى أن المخالفة وحدها لا تكفى بل لابد أن تتوافر معها قلة الاستعمال ، ولقد جاءت كلمة « سُرُر » فى القرآن الكريم مخالفة للقياس ولكنها فصيحة لورودها فى القرآن ، والقياس أن سرير يجمع على أسرّة ، لأن فعيل يجمع على أفعله وفعلان مثل أرغفة ورغفان .

والذى جعل كلمة « سُرُر » فصيحة ورودها فى القرآن الكريم فقط .

ويرى جلال الدين السيوطى أن المخل بالفصاحة هو قلة الاستعمال وحدها[٣٧]

ومعنى هذا أن مدار الفصاحة عنده على كثرة الاستعمال وأن عدمها على قلته ...

ومن ثم نجده يرجع الغرابة ، والتنافر ، ومخالفة القياس إلى قلة الاستعمال، وهو تقرير لا يخلو من التعميم .

---

(٣٥) شروح التلخيص ص ٨٩ .
(٣٦) شروح التلخيص ص ٨٨ .
(٣٧) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ١٨٨ ـ ص ١٨٩ .

ولقد أشرنا آنفا إلى رأى ابن درستويه الذى يخالف السيوطى فى ذلك وهو أن الفصاحة ليست فى كثرة الاستعمال ، ولا قلته ، وقد يلهج العرب الفصحاء بالكلمة الشاذة عن القياس ، البعيدة عن الصواب حتى لا يتكلموا بغيرها ، ويدعوا المطرد المنقاس(٣٨) .

ويرى ابن درستويه أنه « لا يجب لذلك أن يقال : هذا أفصح من المتروك(٣٩) .

وفى مقابل ذلك يرى ابن درستويه أنه ليس كل ما ترك الفصحاء استعماله بخطأ ، فقد يتركون استعمال الفصيح ، لاستغنائهم بفصيح آخر ، أو لعلة غير ذلك(٤٠) .

والجاحظ قد انتبه إلى ضرورة جريان اللفظ على قواعد اللغة وموافقته لطريقة استخدام العرب الفصحاء له ويقول الجاحظ : « وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا « مكره أخاك لا بطل » و « إذا عز أخاك فهن » ، ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبى عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بمرجوه ولم يسمعوا منه ، لأن ذلك يدل على طول إقامته فى الدار التى تفسد اللغة ، وتنقص البيان(٤١) .

وتراه يعقد فى البيان والتبيين بابا فى اللحن وذمه وأثره فى إفساد الفصاحة ، وينقل عن عبد الملك بن مروان قوله : « اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأى » . وينقل القول الآتى فى آثار اللحن : « اللحن فى المنطق أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

---

(٣٨) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ٢٠٨ ـ ص ٢٩٠ .
(٣٩) المزهر فى علوم اللغة جـ ١ ص ٢٠٨ ـ ص ٢٩٠ .
(٤٠) البيان جـ ١ ص ١٦٣ .
(٤١) البيان جـ ٢ ص ٢١٦ .

ثم يورد لنا طائفة من الأقوال التى بها لحن يفسد فصاحة أصحابها .

وترجع أهمية ما أورده الجاحظ إلى أسبقيته فى هذا المجال مما قد فتح المجال واسعا فى هذا الموضوع أمام البلاغيين واللغويين ، كما أنه قد وضع جذور ما نستطيع أن نسميه (بالنقد اللغوى) وهو اتجاه فى النقد قد شاع فى فترات لكنه لم يأخذ العناية الكافية من الباحثين المحدثين حتى يتشكل فى صورته المثلى .

ومن أبرز الذين اشترطوا موافقة القياس اللغوى فى الفصاحة هو :

ابن سنان الخفاجى الذى أرجع المخالفة إلى مجموعة من الأسباب سنحاول أن نوجزها وأن نربط رأيه فيها برأى من جاءوا من بعده ووجـــوه الاختلاف إن وجدت وأسباب مخالفة القياس كما يراها البلاغيون واللغويون عامة والخفاجى خاصة وهى :

(١) أن تكون اللفظة غير عربية مثل كلمة (المقراض) فى قول أبى الشيص[٤٢] .

وجناح مقصوص تحيّف ريشَه ... رِيَبُ الزمان تحيّف المقراضِ

وقول أبى عبادة :

وأبَتْ تركى الغديّاتِ والآ ... صال حتى خُضِّبَتْ بالمقراض

فيرى ابن سنان أن المقراض ليس من كلام العرب ، لكننا نرى أن أصل هذه المادة وهو (قرض) عربى ، ويبدو أن الذى دفع الخفاجى الى القول بأنه ليس من كلام العرب أنه لم يُسْمَع فى كلام العرب الا مثنى ، ولم يخالف الجمهور فى ذلك إلا سيبويه .

و(مقراض) اسم مشتق جاء على وزن (مفعال) ليدل على الآلة التى حدث بها الفعل .

---

(٤٢) سر الفصاحة ص ٦٧ .

ب ـــ أن تكون اللفظ عربية إلا أنها قد عُبِّر بها عن غير ما وضعت له فى عرف اللغة مثل كلمة (الأيِّم)[٤٣] التى استعملوها مكان (الثيب) والأيِّم هى التى لازوج لها سواء كانت بكرا أو ثيبا كقوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » ، وفسرت كلمة (الأيامى) بالنساء اللواتى لاأزواج لهن . ومن الذين أخطأوا فى استعمالها أبو تمام فى قوله :

حللتَ محل البكر من معطّى وقد زفّت من المعطى زفاف الأيِّم

وكقول أبى عبادة :

يشق عليه الريحُ كل عشيّةٍ جيوب الغمام بين بِكرٍ وأيِّمِ

ولقد استخدمها الشماخ بن ضرار استخداما صحيحا فى قوله :

يقر بعينى أن أحدّث أنها وإن لم أنلها أيِّمٌ لم تزوّج

ومثال كلمة (الأيِّم) كلمة (الصّلف)[٤٤] فلقد أخطأ الشعراء عندما استخدموها بمعنى الكِبْر والتيه ، أما العرب فقد استخدموها صفة للمرأة التى لم تحظ عند زوجها ، كما استخدمها العرب صفة للرجل الذى كرهته المرأة . كما استخدموا هذه اللفظة ليدلوا بها على قلة الخير ، ومن الذين أخطأوا فى استخدامها أبو تمام فى قوله :

ما مُقْرَبٌ يختال فى أشطانِه ملآن مُن صَلَفٍ به وتَلَهُّوقِ

ومثال ذلك أيضا كلمة (قَسَط)[٤٥] التى استخدموها بمعنى (أقسط) وأقسط بمعنى عدل ، أما قَسَط فهى بمعنى جار وظلم كما جاء فى قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » ، ومن الذين أخطأوا فى استخدامها أبو عبادة البحترى :

---

(٤٣) سر الفصاحة ص ٦٧ .
(٤٤) سر الفصاحة ص ٦٨ .
(٤٥) سر الفصاحة ص ٦٩ .

شرطيَ الإنصافُ إن قيل اشترطْ وصديقي مَنْ إذا صافَ قسطْ

جـ — من جهة الحذف من الكلمة أو النقص فيها ويشترطا حازم القرطاجنى فى الحذف أن يكون مجحفا(٤٦) كقول لبيد :

« درس المنا بمتالع فأبان »

أراد المنازل .

أما الخفاجى فإنه يقول بمطلق الحذف ، ومن ذلك عنده قول رؤبه ابن العجّاج :

« قواطناً مكة من وُرْق الحما »(٤٧)

يريد الحمام . وكقول خفاف بن نديه :

كنواحِ ريش حمامةٍ نجْديّةٍ ومسحتْ باللّثتين عصفَ الإثْمِدِ(٤٨)

يريد نواحى . وكقول مضرّس بن رِبْعى :

وطرتُ بمُنْصُلى فى يعملات دوامى الأيد يخبِطن السريحا(٤٩)

يريد الأيدى .

وكقول النجاشى :

فلست بآتيه ولا أستطيعُه ولا لِكَ اسقنى إن كان ماؤك ذا فضلِ(٥٠)

يريد ولكن .

وكقول أبى الطيب المتنبى فى رثاء أخت لسيف الدولة .

---

(٤٦) شروح التلخيص ص ٨٩ .
(٤٧) سر الفصاحة ص ٦٩ .
(٤٨) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ تحقيق د. محمد مصطفى هدارة ، د. محمد زغلول سلام .
(٤٩) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٤٣ .
(٥٠) ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٦ .

تعثَّرتْ به فى الأفواه ألسنتها والبُرْدُ فى الطُرُق والأقلامُ فى الكتبِ

فخفف المتنبي الهاء فى كلمة (به) للوزن .

وهذا يبرهن على أن ابن سنان الخفاجى قد جعل مطاق الحذف مخلا ، وسببا فى المخالفة فنراه يأتى بأمثلة قد حذف منها حرف أو أكثر ، ونراه يأتى بأمثلة قد حذفت حركة فقط منها .

ويورد ابن القزاز صورا كثيرة للحذف مما قد يجوز ومما لايجوز .(٥١)

د — وفى مقابل جعله الحذف سببا للمخالفة يجعل الإضافة بزيادة حرف أو أكثر سببا آخر للمخالفة (٥٢) وذلك مثل إشباع الحركة فتصير حرفا كما قال ابن هرمة فى رثاء ابنه :

وأنت على الغواية حين تُرْمَى وعن عيب الرجال بمنتزاح

أى (بمنتزح) .

ومثل :

وأنى حيثُما يسرى الهوى بصرى من حيثُما نظروا أدنو فأنظورُ (٥٣)

يريد أدنو فأنظر .

ومثل قول الفرزدق :

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة نفى الدراهيم تنْقاد الصياريف (٥٤)

---

(٥١) أنظر ضرائر الشعر لابن القزاز ص ١٢٣ ، ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ . ص ١٣٤ .

(٥٢) سر الفصاحة ص ٧٠ .

(٥٣) سر الفصاحة ص ٧١ ويروى البيت فى الضرائر :

وانني حيث ما يثنى الهوى بصرى
من حيث ما سلكوا أدنو فانظور

انظر ص ١٢٧ من الضرائر ، وهو منسوب فى الضرائر الى ابراهيم بن هرمه .

(٥٤) الضرائر ص ١٢٨ .

يريد الدراهم والصيارف .

هـ — من جهة إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل . (٥٥) ومن جاء باللغة الرديئة الشاذة البحترى فى قوله :

متحيرين فباهتٌ متعجبٌ مما يرى أو ناظرٌ متأمّلُ

فقوله (باهت) لغة رديئة شاذة والعربى المستعمل هو بُهِتُ الرجل فهو مبهوت .

ومن ذلك أيضاً قول المتنبى :

وإذا الفتى طرح الكلام معرضا فى مجلس أخذ الكلام اللذْ عنا

فان (اللذْ) لغه شاذة قليلة فى (الذى) .

ومن ذلك قول المتنبى أيضاً :

أيقطمُه التَّوْرابُ قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكْل

فالتَّوْراب لغة شاذة وغير كثيرة (التراب) .

وقد يكون من جهة أن الكلمة بخلاف الصيغة فى الجمع أو غيره (٥٦) وذلك مثل قول الطرماح :

وأكره أن يعيب علىَّ قومى هجاى الأرذلين ذوى الحنات

فجمع (إحنة) على (حنات) وهو غير صحيح والجمع الصحيح (إحن) . ومن ذلك أيضا :

• من نسج داود أبى سلاّم •(٥٧)

يريد (سليمان) •

---

(٥٥) سر الفصاحة ص ٧١ .
(٥٦) سر الفصاحة ص ٧٢ .
(٥٧) ضرائر الشعر ص ٢١٢ ويروى «جدلا» محكمة من نسج سلام» .

ز ــ من جهة إبدال حرف من حروف الكلمة بغيره .[٥٨] ومن ذلك قول شاعر من بنى يشكر :

لهـــا أشاريرٌ من لحمٍ متمرَّرَةٌ من الثعالى ووَخْزٌ من أرانبها[٥٩]

يريد من الثعالب وأرانبها .

ومن ذلك أيضا :

ومنهل ليس بـــه حـــوازقُ ولضفادى جمّه نقانـــق[٦٠]

يريد ولضفادع .

ح ــ ومن الأسباب أيضا إظهار التضعيف فى الكلمة مثل قول الشاعر وهو قعنب بن ضمرة .

مهلاأعاذل قد جربتِ من خُلقى أنى أجود لأقوام وأن ضننوا

ومثل قول أبى النجم الذى تمثل به القزوينى وتبعه شراح التخليص :

الحمد لله العـــلىّ الأجلـــل أعطى ولم يبخل ولم يبخل

لأن قياس التصريف فى الأصل هو الإدغام فى كلمة (الأجل) و(ضنّوا).

وبيت أبى النجم قد نقله السكاكى عن سيبويه بهذه الصورة ، لكن ابن يعقوب يورده بصورة أخرى هى :[٦١]

الحمد لله العلىّ الأجلل الواحد الفرد القديم الأول

هذه هى الوجوه الشاذة عن العرف العربى الصحيح، والتى رددها وجمعها علماء النحو والبلاغة وأبرزها ابن سنان الخفاجى الذى يرى أنها مفسدة للفصاحة

---

(٥٨) سر الفصاحة ص ٧٢ .

(٥٩) سر الفصاحة ص ٧٢ ويروى فى الضرائر ص ١٧٩ :

لهـا أشـــاريز من لحم تتمـــرة
من الثعالى ووخـز من ارانبهـا

(٦٠) ضرائر الشعر ص ١٧٩ .

(٦١) ضرائر الشعر ص ١٧٢ .

ويجب أن تكون الكلمة خالية منها . ولقد أفرد ابن القزاز كتابا لضرائر الشعر وقد قام بتحقيقه أستاذنا الدكتور هداره .

وإلى جانب هذه المجموعة من الوجوه المفسدة يرى الخفاجى أن هناك مجموعة أخرى من الوجوه أقل تأثيراً فى إفساد فصاحة الكلمة وعلى الرغم من قلة تأثير هذه المجوعة إلا أن الخفاجى يفضل أن تصان الكلمة عنها ، لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها وهذه الوجوه فى نظره صفات نقص . ولذلك يجب أن تطرح . (٦٢)

وهذه الوجوه قد تقبل إذا وجدلها قدر من التأويل المقبول ، وقد تقبح إذا لم تؤول تأويلا مقبولا . .

وهذه المجموعة من الوجوه يرجع الفضل فى جمعها عن النحاة إلى الخفاجى ، وابن القزاز وحازم القرطاجنى .

ولقد قسم حازم الضرائر إلى قسمين :

أ ــ ضرائر مستقبحة وغير سائغة .

ب ــ ضرائر سائغة لاتستوحشها النفس .

ومن الوجوه ذات الأثر القليل فى إفساد فصاحة الكلمة مايأتى : ــ

أ ــ صرف مالا ينصرف مثل قول حسان بن ثابت :

وجبريلٌ أمينُ اللهِ فينا وروحُ القُدْسِ ليس لها كفاءُ

ويقابل ذلك منع الصرف لما ينصرف مثل قول العباس بن مرداس .

وما كان حصنٌ ولا حابسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مجْمعِ (٦٣).

ومثل قول البحترى :

هَزج السهيل كأنَّ فى نغماته نبرات معْبَدَ فى الثقيل الأول

---

(٦٢) شروح التلخيص ص ٨٨ ــ ص ٨٩ .

(٦٣) سر الفصاحة ص ٧٣ ، الضرائر ص ١١٢ .

ويقسم حازم القرطاجنى ضرائر الممنوع من الصرف إلى نوعين : (٦٤)

١ — نوع تستوحش منه النفس ولا تقبله مثل الأسماء المعدولة وأشد من الأسماء المعدولة استيحاشا — تنوين الصفة التى على وزن (أفعل) .

٢ — نوع مقبول وهو باقى الأسماء الممنوعة من الصرف .

وقد أخطأ بهاء الدين السبكى عندما ذكر أن الخفاجى « قد أطلق أن صرف مالا ينصرف وعكسه فى الضرورة مخل بالفصاحة .. » (٦٥)

وكما ذكرنا آنفا أن الخفاجى قد أوصى بصيانة الكلمة من هذه الوجوه التى تدخل النقصان على الفصاحة ، وأنها تقبل أحيانا « . . على أن ما ذكرته يختلف قبحه فى بعض المواضع دون بعض ، على قدر التأويل فيه وحكمه » (٦٦) .

فالخفاجى لم يطلق الحكم بالإخلال بالنسبة للممنوع من الصرف أو غيره كما توهم السكاكى ، وتبعه فى هذا الوهم جلال الدين السيوطى . (٦٧)

ب — قصر الممدود مثل قول الأعشى :

القارحَ العَدَّا وكل طِمرَّة ما إن تنال يد الطويل قذالها

وفى مقابله مدُّ المقصور مثل :

سيغنينى الذى أغناك عنى فلا فقر يدوم ولاغناءُ

ويرى حازم القرطاجنى أن قصر الجمع الممدود ومد الجمع المقصور ليس مستقبحا . (٦٨)

---

(٦٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢٢٢ وما بعدها ، وعروس الأفراح ص ٨٩ ، والمزهر للسيوطى جـ ١ ص ١٨٩ — ص ١٩٠ .

(٦٥) شروح التلخيص « عروس الأفراح » ص ٩٠ .

(٦٦) سر الفصاحة ص ٧٤ .

(٦٧) المزهر جـ ١ ص ١٨٩ .

(٦٨) منهاج البلغاء ص ٢٢٥ تحقيق الخبيب بن خوجة ط تونس سنة ١٩٦٦ .

جـ ــ حذف الإعراب للضرورة ،مثل قول امرىء القيس بن حجر:

فاليوم أشربْ غير مستحقبٍ إثمـــاً من الله ولا واغلٍ (٦٩)

ويرى بهاء الدين السبكى أن الضرائر المتعلقة بحركة إعراب الكلمة لاينبغى أن ينظر إليها المتكلم فى فصاحة الكلمة ؛ لأن الحركة زائدة على وضع الكلمة تحدث عند التركيب (٧٠)

ونحن نرى أنه يدخل فى باب اللحن ، واللحن مفسد الفصاحة لأن الإعراب فرع المعنى وقد يقلب المعنى رأسا على عقب ــ أحيانا ــ عند تغيير حركة الاعراب ،وعلى ذلك نرى أن الضرورة فى حركة الإعراب من أقبح الضرورات وهذا يخالف ماذهب اليه الخفاجى والسكاكى كما أشرنا .

د ــ تأنيث المذكر على بعض التأويل مثل

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقتْ صدر القناة من الدم

فلقد أنث الفعل فى قوله « شرقت صدر القناة » وتأويل التأنيث يرجع إلى إضافة كلمة صدر إلى مؤنث .

وفى مقابل ذلك تذكير المؤنث مثل قول عامر بن جوين الطائى :

فلا مُزْنةٌ وَدقتْ وَدْقها ولا أرْضَ أبْقَلَ إبْقالها (٧١)

فحذف علامة التأنيث من أبقلت والوجة إثباتها .

هـ ــ بعض الزيادات المكروهة مثل :

١ ــ إدخال الألف واللام على الفعل مثل :

يقول الخنا وأبغَضُ العُجْمِ ناطقا إلى ربنا صوت الحمار اليَجْدعُ

ومثل :

« ما أنت بالحكم الترضى حكومته »

---

(٦٩) ضرائر الشعر ص ١٣٧ .
(٧٠) شروح التلخيص ص ٨٩ ــ ص ٩٠ .
(٧١) ضرائر الشعر ص ١٦٠ .

٢ — تشديد الكلمة المخففة مثل قول الشاعر :

كان مهواها على الكلكلِّ

ومثل قول رؤبة :

ضخمٌ يحبُّ الخلق الأضخماَّ

٣ — تحريك الياء التى تقع قبلها كسرة فى الرفع والجر مثل قول الشاعر :

ما أن رأيت ولا أرى فى مدتى كجواريَ يلعبن فى الصحراء

والشاهد فى هذا البيت هو كلمة (جوارى) جمع جاريه ، وكان حق الكلام الفصيح حذف الياء (جوارٍ) .

هذه هى الوجوه التى رآها النحويون مخالفة لجريان الكلمة على العرف العربى كما جمعها الخفاجى والقزاز وحازم القرطاجنى والسكاكى ، وهى كما رأينا قسمان : قسم مستقبح ويفسد فصاحة الكلمة ، وقسم آخر مكروه لأنه ينقص الفصاحه ومن الأفضل خلو الكلمة منه . كما رأينا وجوه الخلاف بين الخفاجى وحازم والسكاكى . وفى رأينا أن الخفاجى قد أصاب فى أكثر ماذهب إليه .

صلة الفصاحة بالضرائر الشعرية :

وبعد ، فثمة علاقة وثيقة بين ضرائر الشعر والفصاحة ، ولقد أوضحنا صورا كثيرة وأمثلة عديدة للضرائر كما رآها الخفاجى وحازم القرطاجنى ، وهى أمثلة وأنواع مستمدة من شعر الشعراء السابقين لهم ، ومن أراء النحاة والرواة على اختلاف اتجاهاتهم ومدارسهم ومقاييسهم .

وإذا كانت الفصاحة الخاصة بالمفرد أو الكلام تشترط موافقة القياس اللغوى والخلوص من ضعف التأليف فهل يعنى هذا أن الضرائر الشعرية تنفى صفة الفصاحة عن الشعر الذى تظهر فيه . . . ؟

المعروف أن وصف تراكيب اللغة وبناء الألفاظ ، أى النحو والصرف ، قد استُلْهِمتْ ظواهرُه وقضاياه من الشعر الجاهلى والقرآن الكريم والحديث الشريف وشعراء القرن الأول ، وصارت أوصاف اللغة من الناحية التركيبية أو الاشتقاقية أو البناء — دليلا للرواة والنحاة والنقاد يهتدون به عنـــد نظرتهم إلى اللغة وفنونها التى ابتدعت بعد ذلك .

لكن هذا لايعنى أن وصف اللغة قد اكتمل فى القرنين الأول والثانى ، فلقد ازدادت تلك الأوصاف اتساعا ، كما أنها قد وصفت أوصافا أخرى غير أوصافها التركيبية ، ونعنى بذلك تلك الأوصاف المتعلقة بانتظام الكلام وتآليفه ومدى علاقتها بالذوق والجمال ، مما قد استقر وضعه فى النقد والبلاغة .

فالتجاوزات أو الضرورات التى يلجأ اليها الشعراء ويتجاوز عنها النقاد تختلف أنواعها بحسب مناهج النقاد ودارسى اللغة فالذى لايتجاوز عنه الرواة والنحاة قد يتجاوز عنه النقاد والبلاغيون ، لأنه يحقق فى نظرهم قيمة جمالية لا تتحقق بمراعاة مايراه الرواة والنحاة لازما . وهذه القيم الجمالية التى يراعيها النقاد والبلاغيون قد يرتبط بالأذن مثل النسق الموسيقى المتمثل فى الأوزان والقوافى وغيرهما ، وقد ترتبط بالتصوير أو الخيال الذى يتسع ويضيق ، ويعمق أو يتضح .

والفصاحة وهى تستهدف وصف اللغة من جوانب مغايرة ، قد تختلف وقد تتفق مع أنواع الضرورات فالضرورات التى تؤدى جهاتها إلى تغيير المعنى بما تشيعه فى اللغة من سوء الفهم والإفهام — هى مخلة للفصاحة ، ولا وجه لقبولها ، ويتمثل ذلك فى تغيير علامات الإعراب (٧٢) لأن الضرورة التى تغير

---

(٧٢) انظـر ضرائر الشعر لابن القـــزاز تحقيق د٠ محمـد مصطفى هـداره ص ٩٠ ، ص ٩٨ ، ص ١٣٧ ، ص ١٦٨ ٠

العلامة إنما تغير وظيفة الكلمة فى الجملة مما يترتب عليه تغيير المعنى وهذا فى رأينا مخل بالفصاحة ، ولا نرى قبولا له ، لأنه أخل بالأساس الذى تقوم عليه الفصاحة ، وهو الفهم والإفهام بكلام العرب المشهود لهم بصفاء اللغة . ونخص بالذكر تغيير الإعراب الذى يترتب عليه إخلال بالفهم ، أما التغيير الذى لا يؤدى إلى سوء الفهم ، فهو فى رأينا لا يخل بالفصاحة مثل صرف ما لا ينصرف[٧٣] ومنع الصرف عما هو مصروف ، وذلك كما رأيناه فى الأمثلة التى أوردناها .

كما نرى أن الحذف أو الزيادة فى بناء الكلمة اللذين يؤديان إلى الإغلاق وسوء الفهم يخلان أيضاً بالفصاحة ، لأنهما يصرفان المعنى عن جهته المقصودة ، أما الحذف أو الزيادة اللذان لا يخلان بالفهم فهما لا يخلان بالفصاحة فى نظرنا .

كما أننا نرى أنه لا بأس من قبول الضرورات التى يتحقق بها نسق موسيقى ، بشرط ألا يؤدى تحقيق ذلك النسق إلى الإخلال بقواعد الفصاحة . ولقد أشرنا إلى بعض الضرورات التى لا تخل بالفصاحة فيما سبق .

والضرورات الشعرية مجال يتسع البحث فيه إذا ما تعلق بأوصاف اللغة ، أى بعلومها المختلفة ، مما قد يكون بحثا آخر منفردا .

٤ ـ الخلوص من الكراهة فى السمع :

يحدد القزوينى الكراهة فى السمع بأن تكون الكلمة معجوجة تتبرأ من سماعها الأذن كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة[٧٤] والأصوات فى نظره منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه .

---

(٧٣) انظر ضرائر الشعر لابن القزاز تحقيق د. محمد مصطفى هداره ص ٨٣ .

(٧٤) شروح التلخيص ص ٩٠ .

وهذا تلخيص لما قاله الخفاجى قبله . فلقد اشترط الخفاجى فى فصاحة الكلمة أن نجد لتأليفها حسنا فى السمع ومزية على غيرها ، وإن تساوت هذه اللفظة مع غيرها فى التأليف من الحروف المتباعدة(٧٥) ولكن اللفظة قد تحسن فى نظر الخفاجى بخصوصية فى التأليف تتميز به على مثيلاتها المشتركة معها فى المخرج البعيد . . . ومثاله فى الحروف — ع ذ ب — فإن السامع يجد لقولهم العذيب اسم موضع، وعذيبة اسم امرأة ،وعذب وعذاب وعذبَ وعذبات - ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ فى التأليف ، وليس سبب ذلك بُعْد الحروف فى المخارج فقط ، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى فى تقديم العين على الذال ، لضرب من التأليف فى النغم يفسده التقديم والتأخير ، وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا ، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط فى السمع..»(٧٦) .

وقد يرجع حسن اللفظ فى السمع فى نظر الخفاجى إلى شىء آخر هو : « التأليف المختار فى اللفظة على جهة الاشتقاق »(٧٧) .

ويقرر الخفاجى شيئا هاما هو أن الحسن أو القبح شىء نحسه ونتركه لكننا لا نعرف أسبابه أو علله(٧٨) ومعنى هذا أن الجمال لا يخضع فى نظره لمقاييس ثابتة وإنما يرجع إلى المزاج الشخصى والتكوين النفسى للمتلقى .

ومن أمثلة الكلمات الحسنة فى رأيه كلمة (تأنفت) فى قول الحسين بن على المغربى « ورعوا هشيما تأنّفتَ روضه . . . » ومثل كلمة (تغاوَحَ) التى وردت فى قول المتنبى : —

---

(٧٥) سر الفصاحة ص٥٥ .
(٧٦) سر الفصاحة ص ٥٥ .
(٧٧) سر الفصاحة ص ٥٦ .
(٧٨) سر الفصاحة ص ٥٦ .

إذا سارتِ الأحداج فوق نباته تفاوحَ مسكُ الغانياتِ وردُه

ومثال الكلمات المكروهة فى السمع كلمة « الجرشىّ » التى وردت فى قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة له فى مدح سيف الدولة :

مباركُ الاسم أغرُّ اللقبْ كريم الجِرشىّ شريف النسبْ

ومثل قول زهير ابن أبى سلمى :

تَقِىٌّ نقىٌّ لم يكثِّرْ غنيمة بنهكة ذى قربى ولا بحقلَّدِ

وكلمة (حقلَّد) فى نظر الخفاجى تزيد فى القبح على كلمة « الجرشى »[٧٩] .

والحق أن ما ذكره الخفاجى عن حسن الوقع فى السمع أو الكراهة فى السمع — قد أثار جدلا كبيراً من بعده ، فلقد لخص القزوينى ما قاله الخفاجى وأتبعه بقوله : « وفيه نظر »[٨٠] أما شارحوا التلخيص فقد أوضحوا ما رأوه من وجهات نظر .

يرى سعد الدين التفتازانى فى شرحه المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى — أن الكراهة فى فى السمع إنما هى من جهة الغرابة الناتجة عن الوحشية ، وكلمة (الجرشىّ) فى نظره مثل كلمتى (تكأكأتم) و (افرنقعوا)[٨١] .

وقد تبعه فى هذا الرأى ابن يعقوب المغربى فى مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح .

ويرى ابن يعقوب أيضا أن حصر الكراهة فى السمع فى قبح النغم باطل مردود ، لأنه لو كان كذلك فلا تكون (الجرشىّ) غير مكروهة فى السمع إلا عند نطق خشن الصوت ، وهذا اللفظ فى نظره مقطوع بكراهته[٨٢] .

---

(٧٩) سر الفصاحة ص ٥٦ .
(٨٠) شروح التلخيص ص ٩٠ .
(٨١) شروح التلخيص ص ٩٢ — ص ٩٣ .
(٨٢) شروح التلخيص ص ٩٣ .

إلا أن المغربي يعود إلى ما يقارب رأى الخفاجي وذلك عندما يرد الكراهة في السمع إلى الغرابة ، وغير الغرابة[٨٣] بأى أن هناك أشياء ترجع إليها الكراهة غير الغرابة .

ويرى بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح أن الكراهة فى السمع من جهة الصوت لا تعلق لها بالفصاحة ، لأن السمع قد يستلذ بغير الفصيح بحسن الصوت وبالعكس[٨٤] .

ويقرر السبكى شيئا هاما هو أن هذا القسم الذى أورده القزوينى عن سابقيه لا مكان له فى فصاحة المفرد وإنما يجب أن يوضع فى فصاحة الكلام ، وبناء على ذلك يرى بهاء الدين السبكى أن كلمة (الجرشى) لا كراهة فيها[٨٥].

ويورد السبكى رأى حازم القرطاجنى الذى يرى الكراهة فى كلمة الجرشى ، ويعلل هذه الكراهة بتتابع الكسرات ، وتماثل الحروف ، وكونها حوشية[٨٦].

أما السيوطى فإنه يرى ما رآه سعد الدين التفتازانى ، فهو يرد الكراهة فى السمع فى كلمة (الجرشى) إلى الغرابة الناتجة عن كون الكلمة حوشية[٨٧] .

ونلاحظ من خلال هذا العرض السريع لآراء البلاغيين بعد الخفاجى أنهم يقيمون اعتراضهم على شرط الخلوص من الكراهة فى السمع — على كلمة (الجرشى) ، فلقد انصب أكثر الحديث على هذه الكلمة ، ولم يناقشوا الكراهة نفسها ، وأرجعت الكراهة فى كلمة الجرشى إلى الغرابة التى ترجع إلى الوحشية ولم يرجعوا الكراهة فيها إلى السمع والنغم لأن النغم قد يتوافر فى الكلمة غير

---

(٨٣) شروح التلخيص ص ٩٥ .
(٨٤) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٥) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٦) شروح التلخيص ص ٩١ .
(٨٧) المزهر ج ١ ص ١٨٢ .

الفصيحة ، وفى رأينا أن هذا ممكن حدوثه لكنه لا يعنى أننا ننكر الأثر المترتب على ما يسمى بالجرس المتعلق بالكلمات .

ومعنى هذا أننا لا نقول بمطلق الحسن ولا بمطلق الكراهة فى السمع ، وإنما نرد ذلك إلى المقام وإلى وسيلة الأداء ، أى أن الكلمة التى قد تحسن فى مقام قد تنكره فى الأذن فى مقام آخر ، والعكس صحيح ، كما أن الكلمة قد تحسن وقد تقبح بسبب طريقة أدائها ؛ فالقبح والحسن لا يخلوان من النسبية ، لأن مردهما أخيرا إلى الذوق .

٥ ـ **اعتدال الكلمة فى عدد الحروف :**

يرى بعض البلاغيين أن الاعتدال يكون فى تجنب الكثرة فقط ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجى ، ويرى البعض أن الاعتدال يكون فى تجنب الكثرة والقلة معا ، ومن هؤلاء : حازم القرطاجنى وبهاء الدين السبكى ، ويرى الخفاجى أن الكلمة متى زادت عن الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة[٨٨] ومن الكثرة المستقبحة فى نظره كلمة (مغناطيسهنّ) التى وردت فى قول نصر بن نباتة :

وإياكُم أن تكشفوا عن رءوسكم ... ألاّ إن مغناطيسهنّ الذوالبُ

ومثل قول أبى تمام :

فلأذْرِبيجانَ اختيالٌ بعدما ... كانت معرَّس عبرةٍ وتكالِ

سمُجت وتيَّهنا على استسماجها ... ما حولها من نضرة وجمـــالِ

ففى بيتى أبى تمام كلمتان رديئتان لطولهما وكثرة حروفهما ، الكلمة الأولى (أذربيجان) غير العربية ، والكلمة الثانية هى (استسماجها) .

وكقول أبى تمام أيضا :

---

(٨٨) سر الفصـاحة ص ٧٨ .

أَنِلْه باستماعكه محـــلاً يفوتُ علوُّهُ الطرفَ الطموحا

فكلمة (باستماعكه) ظاهرة القبح فى نظر الخفاجى لكثرة حروفها .

وكقوله أيضا :

الِعيس تعـــلم أن حَوْباَوَاتها ريحٌ إذا بلغتك إنْ لم تَنْحَرِ

فكلمة (حوباواتها) كثيرة الطول وهى جمع حوباء أى النفس .

وكقول المتنبى :

إنّ الكريم بلا كرامٍ منهُم مثل القلوب بلا سويداواتها

جميع سويداء بمعنى حبة القلب .

ومثل قول أبى تمام :

وإلى محمـد ابتعثتُ قصائدى ورفعت للمستنشدين لوائى

ويرى الخفاجى أن مثل هذه الكلمات الطويلة قد يستدل على قبحها بأشياء أخرى غير قبحها الماثل فى كثرة الحروف . (٨٩)

ويرى حازم القرطاجنى أن الطول يأتى من سببين :

١ ــ أن يكون بأصل الوضع فى الكلمة .

٢ ــ أن تكون الكلمة متوسطة فتطيلها الصلة وغيرها .

ويستشهد على ذلك بكلمة (المستنشدين) التى وردت فى بيت أبى تمام السابق وكلمة (أعاضهاك) التى وردت فى بيت المتنبى :

خلت البلاد من الغزالة ليلها فأعاضهاك الله كى لاتحزنا

يرى حازم القرطاجنى وتبعه بهاء الدين السبكى وجلال الدين السيوطى أن القبح قد يكون فى الكثرة والقلة معا . والثلاثى فى نظر السبكى أفضل من الأحادى

---

(٨٩) سر الفصاحة ص ٧٨ .

والثانى « أن تكون الكلمة متوسطة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف ، فإن كانت الكلمة على حرف واحد مثل (قِ) فى أمر الوصل ـ قبحت ، وإن كانت على حرفين لم تقبح إلا بأن يليها مثلها . »[٩٠]

يصنف حازم الكلمات على قدر أصواتها[٩١] ويراها كما يلى :

المفرط فى القصر : ما كان على مقطع مقصور

والذى لم يفرط : ما كان على سبب

والمتوسط : ما كان على وتد ، أو على سبب ومقطع مقصور ، أو على سببين .

والذى لم يفرط فى الطول : ما كان على وتد وسبب .

والمفرط فى الطول : ما كان على وَتِدين ، أو على وتد وسبب

ويثير السبكى جدلا حول الحروف الزائدة فى الكلمة ، وهل الزيادة فى الحروف ترجع إليها الزيادة فى المعنى . . . ؟ وهل كثرة الحروف التى تزيد المعنى تخل بالفصاحة . . . ؟

يجيب السبكى على ذلك ويرى أن تكون إحدى الكلمتين أقل من ناحية المعنى من الأخرى وهى أفصح منها لأن شروط الفصاحة الثلاثة والتى يشترط الخلوص منها لا تعلق لها بالمعنى ، ويقصد بالشروط الثلاثة « الخلوص من التنافر ، والغرابة ، ومخالفة القياس » .

وإنما يكون التفاضل بين الكلمتين اللتين لمعنى واحد ، ومن مادة واحدة فقط ، أما المادتان المستقلتان فلا تفاضل بينهما[٩٢] . فيجوز التفاضل بين (اخشوشن) و (خشن) و (اقتدر) و (قدر) .

ويستغرب السبكى رأى التنوخى صاحب الأقصى القريب ، وابن الأثير

---

(٩٠) عروس الأفراح ص ٩١ .
(٩١) عروس الأفراح ص ٩١ .
(٩٢) عروس الأفراح ص ٩١ .

صاحب المثل السائر ، عندما قالا : إن صيغة (فاعل) أبلغ من (فعيل) لأن اسم الفاعل لا يكون إلا بمعنى الفاعل ، والفاعل قوى ، و (فعيل) يكون بمعنى الفاعل والمفعول ، فهو دائر بين قوى وضعيف ، وما يختص بقوى أبلغ مما دار بين قوى وضعيف . ولأن فاعل أشمل لشموله المتعدى والقاصر .

ويحاول السبكى أن يفنّد ما رآه التنوخى وابن الأثير ومن رأى أن زيادة الحروف لها ارتباط بزيادة المعنى بشيئين :

١ ــ جموع القلة أكثر حروفا من بعض جموع الكثرة ، وأقل وزن لجموع القلة يتكون من أربعة أحرف (أفعل وفعلة) وهذا الوزن أكثر حروفا من (فُعْل ــ فَعَل) ، بل إن أغلب جموع الكثرة لا يتجاوز جموع القلة فى عدد الحروف .

٢ ــ أن اسم الفاعل من الثلاثى على أربعة أحرف (فاعل) واذا أردنا المبالغة حولناه إلى مثله فى العدد وهو (فَعِيل) أو أقل وهو (فَعِل) وهما صيغتان للمبالغة ، وإذا كان (فَاعِل) هو الأصل فيجدر أن يقترن به حرف أو أكثر إذا أريد المبالغة أو زيادة المعنى ولكننا نجد أن (فَعِل) قد نقص فى الحروف عن (فاعِل) وزاد فى المعنى عليه .

ويناقض السبكى نفسه عندما يعترف بأنه لا يستطيع أن ينكر أن زيادة الحروف يتبعها زيادة فى المعنى : « .. وقد يجاب عن فعيل بأنا لم ندّع أن العلامة مطردة منعكسة ، ولا قلنا : إن عدم زيادة الحروف يدل على عدم زيادة المعنى »[٩٣] .

ويعود السبكى ليقول : إن الثلاثى أفصح من الرباعى والخماسى ، ولا ينفى هذا كون الكثير من الرباعى والخماسى فصيحا ، فالثلاثى أفصح من الرباعى والخماسى ولكن ذلك لا يتم إلا بشروط :

---

(٩٣) عروس الأفراح ص ٩٢ .

١ ــ أن تكون الكلمتان لمعنى واحد وتكون إحداهما ثلاثية والأخرى رباعية .

٢ ــ ألا يكون هناك مرجح لإحداهما على الأخرى .

وإذا استعملت الرباعية مع توافر هذين الشرطين وتركت الثلاثية فيكون العدول عن الثلاثية عدولا عن الأفصح(٩٤) .

ويخلص السبكى من ذلك إلى قضية هامة هى أنه « ليس لكل معنى كلمتان فصيحة وغيرها ، فربما لا يكون للمعنى إلا كلمة فصيحة أو غير فصيحة، ويضطر إلى استعمالها »(٩٥) .

ونلاحظ أن الجدل الذى أقامه السبكى حول حروف الزيادة وعلاقتها بالمعنى لا يرتبط كثيرا بهذا الشرط الذى نحن بصدده ، ومن الأجدر أن يدخل هذا الجدل فيما سنتحدث فيه فى المستقبل عن (علاقة الفصاحة بعلم الدلالة) .

وشرط توسط الكلمة بين الكثرة والقلة يهدف به صيانة اللفظة عن الأثر القبيح الذى تتركه فى النفس وعدم التناسب والتلاؤم بينها وبين جاراتها .

وقد تعاب الكلمة بعيوب أخرى تصاحبها عند كثرة حروفها أو قلتها ، كالثقل على اللسان فى النطق ، والوقع السمج فى الأذن ، أو الغرابة الناشئة عن كونها دخيلة أو غير ذلك .

٦ ــ سلامة الكلمة من الابتـــذال :

وصيانة الكلمة من الابتذال شرط من شروط الفصاحة . ويعد الجاحظ أول من أشار اليه كما تشير الينا النصوص ، ويعترف الخفاجى بسبق الجاحظ له فى كثير مما ذهب اليه فى كتاب سر الفصاحة ، يقول الجاحظ مشيدا ببلاغة

---

(٩٤) عروس الأفراح ص ٩٣ .
(٩٥) عروس الأفراح ص ٩٣ .

الكتّاب : « .. قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا »[٩٦] ويقول فى موضع آخر : « وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا ، وساقطا سوقيا ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبا وحشيا»[٩٧] .

ونراه فى المواضع التى يحذر فيها بتجنب الكلمات الوحشية يحذر من الكلمات السوقية المبتذلة .

وهو يبغى بذلك موقفا وسطا بين الوحشى والسوقى « ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص من غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه . . »[٩٨] ويستدل على مدح المتوسط بقول الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وانتشار السوقية والابتذال فى الألفاظ يرجع فى نظر الجاحظ إلى استخفاف الناس لأقل اللغتين وأضعفها ، وهؤلاء هم العامة الذين يستعملون ما هو أقل فى أصل اللغة ويدعون ما هو أظهر وأكثر .

ويشيد الجاحظ بدقة دلالة الألفاظ على معانيها فى القرآن الكريم[٩٩] ، فلم يذكر الجوع فى القرآن إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر — والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك كلمة (المطر) فالقرآن الكريم لا يستخدمها إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث.

ولقد تناول الخفاجى هذا الشرط وجمع بعض الكلمات العامية والمبتذلة التى

---

(٩٦) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣٧ .
(٩٧) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٤ .
(٩٨) البيان جـ ١ ص ٢٥٥ .
(٩٩) البيان جـ ١ ص ٢٠ .

فقدت كثيرا من دلالتها ، ومن هذه الكلمات التى جمعها الخفاجى كلمة (تفرعن)[١٠٠] المأخوذة عن (فرعون) لأن العامة قد تعودوا فى وصفهم للإنسان بالجبروت أن يقولوا (تفرعن فلان) ، ولقد وردت هذه الكلمة فى شعر أبى تمام :

جليتَ والموت مبدٍ حرَّ صفحته وقد تفرعن فى أفعاله الأجلُ

ومثل كلمة (فطير) العامية المبتذلة والتى وردت فى بيت لأبى نصر عبد العزيز ابن نُباته :

أقام قوام الدين زيغُ قناته وأنضج كىّ الجرح وهو فطيرُ

وكلمة (سراويلات) التى استخدمها المتنبى استخداما سيّئا فى قوله :

إنى على شغفى بما فى خُمْرها لأعفُّ عما فى سراويلاتها

وأقبح من كلمة (سراويلات) فى الابتذال كلمة (عنب الثعلب) فى قوله أيضا :

مخلوقية فى خلوقيها سوداء من عنب الثعلب

ومن ذلك أيضا قول زهير بن أبى سلمى :

وأقسمتُ جهدا بالمنازل من مِنىً وما سحقت فيه المقادمُ والقملُ

ومما يعاب على أبى تمام كلمة (كيمياء) فى قوله :

ليزدكَ وجدًا بالسماحة ما ترى من كيمياء المجد تغنى وتغنم

وكلمة الجورب فى قول المتنبى :

تستغرق الكفُّ فوديه ومنكبه وتكتسى منه ريحُ الجورب الخَلِقِ

ومن ذلك أيضا كلمة (أوجعتها) التى جاءت فى بيت لنصر بن نباته :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجعتها الأخادع

---

(١٠٠) سر الفصاحة ص ٦٣ .

وكلمة (زنّى) فى بيت أبى تمام :

لو كان كلّفها عَبيد حاجة يوماً لزنّى شدقها وجديلا

وهذه الكلمات واضحة العيب وخاصة فى شعر كبار الشعراء لأنها تأتى بين الغرر فيزداد وضوح قبحها عما لو أفردت .

ويعلل الشيخ بهاء الدين السبكى الابتذال بشيئين :

١ — أن تكون سخيفة فى أصل الوضع أو سقطت وابتذلت من كثرة استخدامها على لسان العامة .

٢ — أن تغيرها العامة عن أصلها التى وضعت له .

والأمثلة التى ذكرناها آنفا ترجع إلى السبب الأول ، ومن الكلمات التى غيرتها العامة عن أصلها بالاستعمال كلمة (كنيف) التى كانت تستخدم فى الأصل لتدل على الساتر أو الترس كما ورد فى قول عروة بن الورد العبسى :

قلت لقومٍ فى الكنيفِ تروّحوا عشيةَ بتنا عند ماوانَ رُزَّحِ

غير أن هذه الكلمة قد انتقلت لتدل على الآبار التى تستر الحدث ، ولقد اشتهرت بهذا المعنى ، ولذلك صارت هذه الكلمة مكروهة مبتذلة بسبب معناها الجديد الذى انتقلت اليه .

ومثل كلمة (الدّلو) بمعنى النجم قد أصبحت مكروهة مبتذلة بسبب استعمال الناس لها لتدل على (الدّلو) المعروف فى استخراج المياه من الآبار مثلما جاءت فى قول أبى تمام :

متفجر نادمتــه فكأننى للدّلو أو للمِرْزَمَيْنِ نديمُ

ومثل كلمة (صُرْم) التى وردت فى قول أبى صخر الهذلى :

قد كان صُرْمٌ فى الممات لنا فعجلتِ قبل الموت بالصُّرْم

وتعاب هذه الكلمة لأن العامة قد أبدلت السين صادا فى كلمة (سرم)

بمعنى الدبر فصارت الكلمة لها نفس تطق (صُرْم) التى فى بيت أبى صخر الهزلى فقد أصابها الابتذال من هذه الجهة ومن ثم يحسن تركها .

ومن ذلك كلمة (غائط) التى وردت فى قول عمرو بن معد يكرب والتى تعنى البطن من الأرض :

وكم من غائط من دون سلمى قليل الأنس ليس به كتيعُ

ولكن هذه الكلمة أصبحت قبيحة لأن معناها قد تغير وأصبحت اللفظة تدل على شىء آخر مستقبح ومبتذل تتأفف منه النفس .

ومن الألفاظ المكروهة أيضا كلمة (الادبار) فى قول أبى تمام ،

وعزائما فى الرّوع معتصميةً ميمونة الادبار والإقبال

وكلمة (المدبر) تشبه كلمة (الادبار) فى قول أبى تمام أيضا :

يضحكْنَ من أسف الشباب المدبرِ يبكينَ من ضحكاتِ شيب مقمرِ

ومما أصابه القبح أيضاً كلمة (جنابة ، كما وردت فى بيت الشريف الرضى :

سلامٌ على الأطلال لا عن جنابة ولكنّ يأساحين لم يبق مطمعُ[١٠١]

هذه كلمات قد أصابها العيب بعد الانتقال إلى معناها المبتذل ، لشيوعه بين العامة وعلوقة بألسنتهم . كما أن الانتقال قد يجلب للكلمة القبح لكن إحدى صيغها تظل مقبولة مثل كلمة (تصرم) ومضارعها (يتصرم) كما جاء فى قوم البحترى

تَصَرَّمَ الدهر لا وصل فيطمعنى فيما لديك ، ولا يأس فيسلينى

وكقول زيد بن معاوية :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكلٌّ وإنْ طال المدى يَتَصَرَّمُ[١٠٢]

---

(١٠١) سر الفصاحة ص ٧٧ .
(١٠٢) سر الفصاحة ص ٧٧ .

فالمضارع والماضى فى البيتين مرضيان، لكن المصدر الثلاثى قبيح فى بيت الهذلى الذى ذكرناه فيما سبق .

وكما قد تقبح الكلمة بالنقل ، فإنها قد تحسن به أيضا ، فلقد نقل السبكى فى عروس الأفراح والسيوطى فى المزهر عن ابن النفيس فى كتابه الطريق إلى الفصاحة ما يفيد ذلك « . . قد تنقل الكلمة من صيغة إلى أخرى ، أو من وزن لآخر، أو من مضى لاستقبال وبالعكس، فتحسن بعد أن كانت قبيحة ، وبالعكس » .(١٠٣)

ومن الألفاظ التى حسنت بعد النقل :

(أ) كلمة « خوّد » التى بمعنى أسرع ، وفى القاموس : التخويد : سرعة السير ، وهى قبيحة فى نظرا بن النفس ولكن هذه الكلمة يقل قبحها — فى نظره — إذا جعلت اسما « خودا » وهى المرأة الناعمة .

(ب) وكذلك كلمة (ودع) تقبح فى صيغة الماضى ، لأنها لا تستعمل إلا قليلا، لكنها تحسن فعل أمر (دعْ) أو فعلا مضارعا « يدع » ، ولقد ورد المزيد بالتضعيف فى الماضى من هذه المادة فى قوله تعالى : « ما ودّعك ربك وما قلى » وهذا يخالف المجرد الذى رآه ابن النفيس قبيحاً .

(جـ) ومن ذلك أيضا لفظ (اللب) بمعنى العقل ، فهو يقبح مفردا ،(١٠٤) لكنه لا يقبح مجموعا كقوله تعالى « ... لآيات لأولى الألباب » ويقرر ابن النفيس أن لفظ (اللب) لم يرد مفردا إلا مضافا مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الحازم من أحدكن ... » كما ورد مضافا إليه فى قول جرير :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهنّ أضعف خلق الله أركانا

(د) وكذلك كلمة الأرجاء تحسن مجموعة كقوله تعالى: « والملك على أرجائها » كما لا تحسن مفردة إلا مضافة مثل : رجا البئر .

---

(١٠٣) عروس الأفراح ص ٥٩٤ المزهر جـ ١ صـ ١٩٨ ـ ص ١٩٩ .
(١٠٤) عروس الأفراح ص ٩٤ ، المزهر جـ ١ ص ١٩٨ ـ ص ١٩٩ .

(هـ) ومن ذلك كلمة « الأصواف » تحسن مجموعة نحو قول تعالى : « ومن أصوافها » ، ولا تحسن مفردة كقول أبي تمام :

« فكأنما لبس الزمان الصوفا »

(و) وقد يحسن المفرد ويقبح الجمع مثل المصادر كلها ، وكذلك : (طيف) و (طيوف) فتحسن الأولى ، وتقبح الثانية .

أما (بقعة) فإنها لا تحسن ، وكذلك جمعها (بقاع) فانه لا يحسن إلا مضافا مثل بقاع الأرض . (١٠٥)

وقضية النقل وما تؤدى إليه من آثار فى اللغة ، من القضايا التى يطول الحديث فيها ، وهى لا تختص بلغة دون أخرى فهى ظاهرة تبدو واضحة فى اللغات الحية ، لأن طبيعة التطور الحضارى يدفع إلى النقل أو استعمال صيغة وترك الأخرى ، ومقياس الحسن والقبح فى الألفاظ لا يرتبط بسبب واحد بل تساهم عدة أسباب فى ترجيح لفظة على أخرى ، وهذه الأسباب يمكن أن نوجزها فيما يأتى :

١ — ارتباط اللفظة باعتبارات دينية كما يبدو من استعمال القرآن الكريم لبعض الألفاظ ، وتفضيلها على غيرها ، فتقع تلك الألفاظ فى النفس موقعا حسنا لمكانة ذلك الكتاب المقدس فى نفوس الناس ، وللصياغة الفنية الرائعة لهذه الألفاظ ، والقرآن الكريم لا يجارى فى روعة استخدامه للألفاظ ومدى ملاءمتها لجاراتها وذلك كما رأينا فى تفضيل صيغة على أخرى ، أو استعمال الجمع وترك المفرد وغير ذلك مما فصله البلاغيون الذين أقاموا درسهم على النص القرآنى المعجز .

٢ — قد تحسن اللفظة لسهولة مخارجها ، فلا صعوبة فى نطقها ، ولا تنافر يجهد الناطق والسامع ، ولا كثرة مذمومة فى عدد أحرفها ، ولا غرابة على ناطقيها وسامعيها . فسهولة المخرج لحروف الكلمة ، وشيوعها على ألسنة الناطقين وآذان السامعين يجعلها مقبولة مستساغة موصوفة بالحسن والعذوبة ، وعدم توافر هذه العوامل يؤدى إلى القبح والنفور .

---

(١٠٥) عروس الأفراح ص ٩٤ .

٣ — قد تقبح بسبب ارتباطها بالمعنى القبيح أو المنفّر الذى يتأفف منه الناس وذلك مثلما يحدث عند سماع ألفاظ الروائح الكريهة، والقاذورات، وفضلات الإنسان والحيوان، كما تقبح تلك الألفاظ المتصلة بالملابس الداخلية أو المتصلة بالجنس.

والملاحظ فى هذه الألفاظ أنها تتغير وتستبدل بغيرها، وذلك لأن الناس يحاولون تجميل الحياة، فيلجأون إلى تغليفها بغلالة جميلة من الألفاظ والمعانى، لكن سرعان ما تستهلك وتخلق تلك الأغلفة، وتبتذل، فيلجأ الناس من جديد إلى ألفاظ أخرى جديدة لتغطى مايشعرون به من قبح.

وتفسيرنا لهذا التغير المستمر فى تلك الألفاظ هو أنها ألفاظ متعلقة بحاجات الإنسان وغرائزه وتلك مسائل يشترك مع الحيوان فيها، ورغبة منه فى أن يترفع عن حيوانيته، فإنه يتسامى بما يشعره أنه متميز فيه عن الحيوان. ونعنى بذلك الكلام أو اللغة، فالكلام الجميل المستعذب يجمل الحياة، وينشر السعادة والوفاق بين الناس ولانبالغ إذا قلنا: إن أكثر الخلافات التى تنشأ بين الناس يكون سببها سوء التعبير المتعمد وغير المتعمد.

ويرى السبكى أن الابتذال فى الألفاظ ليس وصفا ذاتيا، ولاعرضا لازما - بل هو لاحق من اللواحق المتعلقة بالاستعمال فى زمان دون زمان، وصقع دون صقع.(١٠٦) كما أننا نلاحظ أن الألفاظ التى تسقط فى مهاوى الابتذال والتى قد يشعر المثقفون نحوها بضرورة الترفع - يمكن أن تعاد إليها طلاوتها؛ ويرجع ذلك إلى الأدباء البارعين الذين يستطيعون وحدهم أن ينقذوا أو ينتشلوا تلك الألفاظ من بحر الابتذال، وذلك باستعمالاتهم المبتكرة الفريدة لتلك الألفاظ. وهذا سنشير إليه إن شاء الله فيما سنكتبه عن التغير الدلالى الذى يلحق بالألفاظ، وهو تغير قد يكون انحطاطيا هابطا أو متساميا، وذلك فى الفصل الذى سنعقده عن علاقة الفصاحة بعلم المعنى أو الدلالة.

---

(١٠٦) عروس الأفراح ص ٩٣.

ويرى بعض الباحثين أن هناك ترتيبا للألفاظ بحسب الحسن والقبح ، وذلك مثلما فعل حازم القرطاجنى الذى رتب الألفاظ بحسب الابتذال والغرابة وما يترتب عليهما من قبح ، وبحسب الخلوص منهما ومايترتب على ذلك من حسن، فالكلمة عنده على أقسام :

الأول : ما استعملته العرب دون المحدثين ، وكان استعمال العرب له كثيراً فى الأشعار وغيرها ، فهذا حسن فصيح .

الثانى : ما استعمله العرب قليلا ، ولم يحسن تأليفه ولا صيغته ، فهذا لايحسن إيراده

الثالث : ما استعمله العرب ، وخاصة المحدثين [١٠٧] دون عامتهم ، فهذا حسن جداً لأنه خلص من حوشية العرب ، وابتذال العامة .

الرابع : ماكثر فى كلام العرب وخاصة المحدثين ، وعامتهم ، ولم يكثر على ألسنة العامة ، فلا بأس به .

الخامس : ماكان كذلك ، ولكنه كثر فى ألسنه العامة ، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن ذلك ، فهذا يقبح استعماله لابتذاله .

السادس : أن يكون ذلك الاسم كثيرا عند الخاصة والعامة، وليس له اسم آخر، وليست العامة أحوج لذكره من الخاصة ولم يكن من الأشياء التى هى أنسب بأهل المهن ،فهذا لايقبح ولايعد مبتذلا، مثل لفظ الرأس والعين .

السابع : أن يكون كما ذكرناه ، إلا أن حاجة العامة له أكثر ، فهو كثير الدوران بينهم كالصنائع ، فهو مبتذل .

الثامن : أن تكون الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب والمحدثين لمعنى ، وقد استعملها بعض العرب نادرا لمعنى آخر ، فيجب أن يجتنب هذا أيضا .

التاسع : أن تكون العرب والعامة استعملوها دون الخاصة، وكان استعمال العامة لها من غير تغيير ، فاستعمالها على مانطقت به العرب ليس مبتذلا ، وعلى التغيير قبيح مبتذل .

---

(١٠٧) وردت المحدثين بالياء فى المزهر وعروس الأفراح .

وهذه الأقسام التى ذكرها حازم القرطاجنى يمكن أن يكون ترتيبه لها مقبولا بوجه عام ، لكن هذه الأقسام لا تتصف بالثبات والإطلاق وذلك لما أشرنا إليه آنفا عن الثقل والتغير الدلالى للألفاظ سواء كان تغيرا نحو الهبوط والانحطاط أم إلى الارتفاع والارتقاء ذلك التغير الذى يرتبط فى كثير من حالاته بموقع اللفظة فى نظم العبارة ودلالتها على المعنى ، أو غيما يعبر عنه النقد الحديث بتلازم الشكل والمضمون .

ونعود فنقول : ما موقفنا من كلمة استعملها القرآن ثم ابتذلها الناس باستعمالهم لها فى عصر من العصور . . ؟ موقفنا فى الحقيقة مزدوج ، فالكلمة بلا شك فصيحة باستعمال القرآن لها ، لكننا نحكم عليها بالابتذال عندما تبتذل بالاستعمال فموقفنا فى الحقيقة مزدوج ، ويظل ذلك الموقف مزدوجا حتى يستعملها أديب بارع وينتشلها من الابتذال .

إلى جانب هذه الشرط والشروط التى اشترطها البلاغيون فى فصاحة المفرد - نجد الخفاجى يضع شرطا آخر قد استلهمه من أبى العباس المبرد كما يصرح هو بذلك هو :

٧ - خلوص الكلمة من تصغير التعظيم وتصغير الكلمة التى نطق بها العرب مصغرة :

والخفاجى يرى ما يراه أبو العباس المبرد من أن التصغير فى كلام العرب لم يدخل إلا لنفى التعظيم ، ولا فائده من التصغير - فى نظر الخفاجى - إذا وضع للتحقير والتعظيم معا .(١٠٨) ومن أمثلة التصغير الذى ينكره الخفاجى تصغير التعظيم فى كلمة (دويهية) التى وردت فى البيت الآتى :

وكل أناس سوف يدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصفَرُّ منها الأنامل

وعلى هذا يحمل الخفاجى كلمة (ليلتنا) الواردة فى بيت المتنبى :

أُحادٌ أمْ سداسٌ فى أحادِ لُيَيلتنا المنوطة بالتنادى

فتصغير التعظيم مخل بفصاحة المفرد فى نظر ابن سنان الخفاجى كما وضح فى كلمتى (دُوَيْهِيَة) و (لُيَيْلَتنَا) (١٠٩)

---

(١٠٨) سر الفصاحة ص ٨١ .

(١٠٩) سر الفصاحة ص ٨١ .

ومن التصغير المعيب عند الخفاجى أيضا : تصغير الأسماء التى لم ينطق بها إلا مصغرة ، مثل كلمتى (الأُجْيْن) و (الثُّرَيَّا) فليس للتصغير فيهما حسن يذكر[١١٠] ولهذا عاب على المتنبى قوله :

إذا عذلوا فيها أجبت بأنَّةٍ حُبَيِّبَتَا قلبى فؤادى هَيَا جِلُ

أما التصغير الذى يحسن فى نظره هو الذى تكون فيه الكلمة قد عبّر بها عن شىء لطيف ، أو خفى ، أو قليل ؛ أو ما يجرى مجرى ذلك ، ومن أمثلة ذلك التصغير الذى يقع موقعا حسنا قول الشريف الرضى :

يولّع الطل بردينا وقد نسمت رُوَيْحَةُ الفجر بين الضَّال والسَّلَمِ

فكلمة (رُوَيحَة) هنا حسنة ، لأنها تصغير للريح عندما تكون لسيما مريضا ضعيفا . ومن ذلك أيضا قول أبى العلاء صاعد بن عيسى الكاتب[١١١].

إذ لاح من برق العقيق وُمَيضةٌ تدقُّ على لمع العيون الشوائم

فالتصغير فى كلمة (وُمَيضَة) قد حسن ، لأن الوميضة هنا خفية تدق على من ينظرها .

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى :

إذا شربتْ رأيت الماء فيها أزَيْرق ليس يستره الجران

فالماء قليل يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل ، لذلك حسن وروده مصغرا

ومن أمثلة تصغير القلة الذى يحسن قول الشريف الرضى :

زال وأبقى عنـــد وُرَّاثِهِ جُذَيمَ مال عرَّقَتْهُ الحقوقْ

فكلمة (جذيم) أفادت قلة المال الموروث .

ومن التصغير المختار عند الخفاجى قول المخزومى :

وغاب قُمير كنت أرجو طلوعه وروّح رُعيان ونوّم سُمَّرُ

---

(١١٠) سر الفصاحة ص ٨٠ .
(١١١) سر الفصاحة ص ٧٩ .

فقد جعله الشاعر هنا قمرا ، لأنه كان هلالا غير كامل ، ويمكن الدلالة على ذلك بأن يقول : إن القمر قد غاب فى أول الليل وقت نوم السمر ، والقمر إذا كان هلالا غاب فى ذلك الوقت(١١٢) .

فالتصغير الذى يقبح عند الخفاجى نوعان فقط :

١ — تصغير التعظيم .

٢ — والتصغير الذى يطرأ على الكلمة التى تطلق بها مصغرة .

وهذان النوعان مخلان بفصاحة المفرد فى نظره ، أما أنواع التصغير الأخرى فإنها تحسن ، ولا تفسد فصاحة الكلمة .

وهذا الشرط قد أبرزه الخفاجى وانفرد به ، وقد استلهمه من المبرد ، ولم يضفه البلاغيون من بعده فى شروط فصاحة المفرد أو غير المفرد .

وبعدُ ، فهذه هى القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلمة المفردة حتى تتصف بالفصاحة ، وقد وجدنا أكثرهم قد اقتصر على ذكر الشروط الثلاثة الأولى وهى الخلوص من التنافر ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى ، كما أنهم قد اختلفوا فى شرط (كراهة السمع) فقد أرجعه بعضهم إلى التنافر ، كما أرجعه البعض الآخر إلى الغرابة ، كما رأينا فى كلمة (الجرشىّ) التى وردت فى بيت المتنبى .

وقد أضاف الخفاجى شروطا أخرى قد استلهمها من سابقيه ، كالابتذال الذى اشترط الخلوص منه وقد استلهمه من الجاحظ ، وتصغير التعظيم الذى استلهمه من المبرد .

ولا شك أن الخفاجى صاحب فضل كبير فيما فعله وجمعه وقسمه ،وذكره عن فصاحة المفرد .

وقواعد المفرد التى جاءت متناثرة فى كتب البلاغيين واللغويين أوصاف للغة

---

(١١٢) سر الفصاحة ص ٧٩ .

فى جانب من جوانبها ، وهذه الأوصاف قد اجتهد علماء البلاغة واللغة لإبرازها وإخراجها كاملة ، وفى الحقيقة كانت نظرتهم قائمة على الشمول ، لأنهم قد أرادوا أن يستخلصوا قواعد عامة يمكن تطبيقها على مفردات اللغة فى كل العصور لتكون شبيهة بقواعد النحو . لكن هذا المنطلق الذى قد بدأوا منه لم يكن كافيا ، لأن النظرة إلى الدرس اللغوى فى النحو والصرف تختلف عن نظرة الدرس البلاغى إلى اللغة ، ومن الواجب أن يكمل كل منهما الآخر ، فالبلاغة — وهى فن القول — تقوم على التركيب ، أما النحو فإنه يقوم على التحليل ، وهذا التكامل يجب أن يكون فى اعتبار الدارسين عند البحث اللغوى .

ويمكن أن نوضح شيئا من ذلك فيما نحن بصدده الآن ، ففصاحة المفرد قد حددها البلاغيون بشروط قد أصبحت قوالب وأشكالا جامدة ، فتنافر الحروف مثلا شرط قد وضعه البلاغيون ، لكنهم لم ينظروا إلى التنافر نظرة لها ارتباط بالناحية المعنوية والجمالية ، بل إنهم عندما أرادوا تفسير التنافر لم يفسروه تفسيرا دقيقا ، فلقد أرجعوه إلى مطلق القرب أو البعد فى المخارج ، وقد تصدق نظرتهم العامة إلى التنافر ، لكن الدراسات الصوتية الحديثة قد أوضحت أشياء كثيرة عما لها من إمكانات ، وسنفصل ذلك فى الفصل الذى سنتناوله عن علاقة الأصوات اللغوية بالفصاحة .

كما أن التنافر الذى حذر منه البلاغيون قديما له دلالة جمالية فى نظر المحدثين الذين يرون فى كثير من شواهده حكاية صوتية تتلاءم مع معانيها ، ومع أننا نتناول العلاقة بين التنافر والحكاية الصوتية بحذر إلا أن هذا لا يمنع من وجودها ، ووجود المقتنعين بها اقتناعا تاما(١١٣) .

---

(١١٣) انظر ما كتبه الدكتور محمد النويهى فى تطبيقاته للحكاية الصوتية على الشعر الجاهلى فى كتابه : الشعر الجاهلى ـ الجزء الاول .

أما الغرابة فلا ينبغى أن ينظر إليها نظرة مطلقة لأن ما هو غريب علينا اليوم لم يكن كذلك فى عصر آخر ، وما نراه اليوم فصيحا قد يوصف بالغرابة عند أجيال لاحقة . ولقد استطاع البلاغيون العرب أن يدركوا ذلك بذكاء عندما ربطوا بين الغرابة وعدم الاستعمال ، وخاصة استعمال القرآن الكريم ، فاشترطوا ورود اللفظة فى القرآن الكريم حتى تنتفى عنها الغرابة . ولقد قمنا بتفسير الغرابة بإسهاب فيما سبق . كما أشرنا أيضا إلى موقفنا من إطلاق الغرابة ونسبيتها .

أما شرط الخلوص من مخالفة القياس اللغوى فيجب أن تراعى فيه اعتبارات كثيرة تتعلق بالوجوب والجواز ، كما تتعلق أيضا بلغة الشعر ولغة النثر ، فما يمكن التجاوز عنه فى لغة الشعر ، لا يجوز فى لغة النثر ، لأن التجاوز فى لغة الشعر يؤدى إلى ما يعوض عنه من قيم فنية أخرى كالنسق الموسيقى أو التصويرى ، ومن ثم كانت قضية الضرائر فى الشعر من القضايا التى يجب أن تعالج من جانبين : جانب لغوى وهو الجانب النحوى الصرفى وكذلك الصوتيات ، وجانب بلاغى يعالج ما يترتب على مخالفة القياس من ألوان فنية أو جمالية . أما إذا لم يتحقق من مخالفة القياس أو الضرورات الشعرية ألوان فنية جمالية فإن ذلك يؤدى فى نظرنا إلى الفساد ، وكثرة اللجوء إلى تلك الضرورات يدفعنا إلى الشك فى قدرة الشاعر على استيعاب قوانين اللغة . لذلك لا نسلم بأن ما وقع فيه الشعراء المحدثون ضرورات شعرية ، بل هى أخطاء إذا لم تكن موكولة عن القدماء ، وذلك لأنها جاءت بعد عصر الاحتجاج .

* * *

ثانيا : القواعد التى يشترط وجودها فى فصاحة الكلام :

رأينا فيما سبق أن كلمة (الفصاحة) وصف يطلق على المفرد مثل : كلمة فصيحة ، كما أنها وصف يطلق أيضا على الكلام مثل قولنا : كلام فصيح .

وقد اختلف البلاغيون فى مرادهم بلفظة (الكلام) ، فهل المراد بها ما ليس

بكلمة . . ؟ أو أنها قد قصد بها المركب الإسنادى فقط . . ! أى أنها تشمل الكلام المفيد الذى يحسن السكوت عليه فقط . . أو أنها تشمل أيضا الكلمات المنتظمة التى لم يكتمل معناها . . . ؟

والملاحظ أن وصف الكلمة المفردة بالفصاحة لا إشكال فيه ولا خلاف ، وكذلك وصف المركب الإسنادى بالفصاحة ، لأنه عندئذ كلام مفيد يحسن السكوت عليه .

أما المركب غير المفيد مثل المركب الإضافى والمزجى ، وكذلك جملة الصلة ، وجملة الشرط ، وجملة الجواب — ففى ذلك آراء ثلاثة : رأى يرى أنه داخل فى الكلام مثل بيت الشعر الذى يوصف بالفصاحة مع عدم اشتماله وحده على الإفادة ، ويرد صاحب مواهب الفتاح على هذا الرأى بأن وصفه بالفصاحة لا يستلزم تسميته كلاما حتى يدخل فى مسماه ، وإنما المقتضى لدخول المركب غير المفيد فى الكلام أن يقال فيه مثلا : هذا كلام فصيح ، لا وصفه بالفصاحة فقط ، لأن الوصف بالفصاحة أعم من التسمية بالكلام ، والأعم لايستلزم الأخص[١١٤] .

أما الرأى الثانى وهو الأرجح أنه داخل فى فصاحة المفرد ، وأن اتصافه بالفصاحة يكون باعتبار فصاحة المفردات ، وسبب ذلك أن الكلام إذا أطلق فإنه ينصرف للمفيد . . ، فيكون مقابله ما ليس كذلك ، وبذلك يدخل فى المفرد المركب غير المفيد . ويبدو ذلك واضحا إذا نظرنا إلى ما يقابل المفرد ، فإننا نرى المثنى والجمع من الناحية العددية ، ونرى المركب من الناحية اللفظية ، كما نرى الكلام فى مقابله المفرد من الناحية المعنوية ، ويرى سعد الدين التفتازانى أن مقابلته بالكلام قرينة دالة على أنه أريد به المعنى الأخير أى ما ليس بكلام[١١٥] .

---

(١١٤) مواهب الفتاح فى شرح وتلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى ص ٧١ .

(١١٥) مختصر السعد التفتازانى على تلخيص المفتاح للقزوينى ص ٧٢ .

أما الرأى الثالث فهو رأى بهاء الدين السبكى الذى يرى أن هذه الأنواع من التراكيب قد خرجت عن المفرد ولم تدخل فى الكلام ، ويرى السبكى[١١٦] أنه من الأفضل أن تستبدل كلمة (الكلام) بكلمة (المركب) لأن المركب يشمل المفيد وغير المفيد .

وفصاحة الكلام التى نحن بصدد الحديث عن قواعدها نقصد بها فصاحة الكلام المفيدالذى يحسن السكوت عليه، لأننا نرى أن فصاحة المركب غير الإسنادى متضمنة فى فصاحة المفرد من ناحية ، وفى فصاحة الكلام من ناحية أخرى ، فالحديث عن فصاحة المفرد وفصاحة الكلام يغطى فصاحة المركب غير الإسنادى.

وسنتناول الآن القواعد التى اشترط البلاغيون توافرها فى الكلام حتى يوصف بالفصاحة ، وهذه الشروط لابد أن تكون مصحوبة بفصاحة المفرد .

ولقد اشترط القزوينى ثلاثة شروط مضافة إلى فصاحة المفرد ، لكن شراح التلخيص قد أضافوا شروطا أخرى قد جمعوها عن الذين سبقوه وسنوضح ذلك فيما بعد . وسنورد قواعد فصاحة الكلام مفصلة كما يلى : —

١ ـ خلوص الكلام من ضعف التاليف :

والمراد بالضعف هنا أن يكون الكلام جاريا فى تركيبه على خلاف القانون المشهور عند جمهور النحويين ، وإن كان بعضهم يجوز ذلك التركيب .

ومن أمثلة الضعف التى توقف عندها البلاغيون والنحاة — رجوع الضمير إلى المتأخر لفظا ورتبة مثل : (ضرب غلامُه زيدا) .

وقد اختلف فى جواز ذلك ، ويرى جمهور النحويين أن ذلك ممتنع ، وتوضيح العلة فى امتناعه أنهم اعتبروا الغلام هو الضارب ، فقد ذكر ضمير زيد قبل أن يذكر لفظ (زيد) حقيقه وتقديرا ، لأنه فى رتبة التأخير لكونه مفعولا ، ولم يذكر معناه ، وليس فى حكم المذكور ، ولذلك اعتبر هذا التأليف ضعيفا .

---

(١١٦) عروس الافراح فى شرح وتلخيص المفتاح ص ٧٣ .

لكن هذا جائز فى حالة كون زيد فاعلا مثل: (ضرب غلامَهُ زيدٌ) فزيد هنا فى تقدير التقديم . ولا ضعف هنا .

وتوجد حالات أخرى يجوز فيها عودة الضمير على المتأخر مثل :

الإضمار بعد ذكر مايتضمن معناه كقوله تعالى : «اعدلوا هو أقرب للتقوى» فان الضمير عائد إلى العدل المفهوم من كلمة (اعدلوا) . ومثل ذلك أيضا :

جَزَى ربُّهُ عنّى عديَّ بن حاتم جزاءَ الكلاب العاويات وقد فعل

فان الضمير هنا عائد إلى مصدر جزى .

ويجوز الإضمار أيضا قبل ما لم يذكر لفظه ويكون فى حكم المذكور[١١٧]. ويكون ذلك بأن لا يتقدم ما يدل على معناه ، ولا يتقدم لفظه صريحا أو تقديرا مع وجود نكتة فى الإضمار؛ كالإبهام ثم البيان ليتمكن فى ذهن السامع عند اقتضاء المقام ، ويتضح ذلك فى ضمير الشأن مثل : (هو زيد قائم) . كما يتضح أيضا فى ضمير رب كقول الشاعر :

ربه فتية دعوت إلى مـا يورث الحمد دائمـا فأجابوا

ومن الضعف أيضا فى نظر الخفاجى تغير الكنايات ، وعدول الضمائر عن النسق[١١٨] كما فى قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

فتاتان أمّـا منهما فشبيهة الـ هلال وأخرى منهما تشبه الشمسا

فتاتان بالنجم السعيد وُلدتما ولم تلقيا يوماً هوانا ولا نحسا

فى قوله ولدتما انتقال من الغيبة إلى الخطاب ، وكان من الواجب عليه أن يقول (ولدتا) ، وهذا التغيير جعل الكلام الثانى كالمنقطع عن الأول .

وشبيه بهذين البيتين بيت أبى الطيب المتنبى :

قومٌ تفرستِ المنـايا فيكُمُ فرأت لكم فى الحرب صبر كرامِ

---

(١١٧) مواهب الفتاح ص ٩٩ .
(١١٨) سر الفصاحة ص ٩٨ .

ووجه القول أن يقول : قوم تفرست المنايا فيهم فرأت لهم .

وقد رأينا فيما سبق أن الخفاجى قد اشترط فى فصاحة الكلمة المفردة كون الكلمة خالية مما ينكره أهل اللغة ومايرده علماء النحو من التصرف الفاسد فى الكلمة ، ولكن الخفاجى قد ذكر خلال ذلك وجوها تصلح لأن تصنف فى الشرط الذى نحن بصدده أى خلوص الكلام من ضعف التأليف ومن ذلك حذف حركة الإعراب التى بها تظهر وظيفة الكلمة فى الجملة مثل امرىء القيس ابن حجر :

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثمـــا من الله ولا واغلِ

فحذف حركة إعراب كلمة مفردة لايتعلق بها فقط، وإنما يتعلق بها وبمجاراتها مما قد يترتب عليه خلل أو تعقيد فى المعنى .

ويرى الشيخ بهاء الدين السبكى أن الضعف ربما كان فى النثر دون الشعر لأن ضرورة الشعر كما تجيز ما ليس بجائز فقد تقوّى ما هو ضعيف ، فعلى البيانى أن يعتبر ذلك فربما كان الشيء فصيحا فى الشعر ، غير فصيح فى النثر ، ولذلك جوز جماعة (ضرب غلامه زيدا) فى الشعر فقط ، وابن مالك هو المجوز لهذا فى النثر(١١٩) .

ووجوه الضعف التى اشترط البلاغيون خلو الكلام منها حتى يصبح فصيحا ــ كثيرة ومنثورة فى كتب اللغة ، وفى دواوين الشعراء وخاصة أولئك الشعراء الذين كانوا يتعمدون كسر البناء مثل المتنبى وأبى تمام ، ولقد اهتم النقاد بتتبع شعرهم وما فيه من مآخذ قد كثر الجدل فى تفسيرها .

وشرط ضعف التأليف الذى اشترطه البلاغيون خلوص الكلام منه لايتعلق

---

(١١٩) عروس الافراح ص ٦٦ .

بقضايا النحو فقط ، بل يتعداه إلى قضايا بلاغية ونقدية ، وأهم تلك القضايا ما يتعلق بالوضوح والإبهام ، ونحن قد بيّنا فيما سبق أن الإبانة والوضوح يرتبطان ارتباطا وثيقا بمفهوم الفصاحة ، فالكلام الذى يشيع فيه الغموض يؤدى إلى عدم الفهم أو سوء الفهم ، وهذا لا يتحقق مع الهدف الذى يسعى الكلام الفصيح إلى تحقيقه ، وهو الفهم والإفهام بالكلام الصريح الذى خلص مما يعوقه نطقا وكتابة ، المطابق لقوانين اللغة .

واللغة العربية التى تعتمد على الإعراب ، لا تُعْرَفُ وظائف الكلمات بها إلا عن طريق الإعراب الذى يتخذ علامات تدل على أركانه ، وعن طريق تلك العلامات التى توضح وظائف الألفاظ والجمل — يتحقق الفهم السليم للمعانى . أما إذا اختلفت علامات الإعراب عما هو معروف فى قوانين النحو ، فان المعانى لا بد أن تتغير تبعا لذلك ، وهذا التغير يؤدى قطعا إلى خلط المعانى وسوء الفهم .

وهذا يخالف ما نراه فى اللغات التى تخلصت من الإعراب ، فان وظائف الكلمات فى تلك اللغات تعرف بمواضعها داخل الجمل ، وتعرف معانيها تبعا لذلك .

فضعف التأليف له علاقة وثيقة بالغموض والإبهام الذى يؤدى إلى التعقيد الذى سنفصل الحديث عنه فيما سيأتى إن شاء الله .

وضعف التأليف يؤدى إلى التعقيد اللفظى والتعقيد المعنوى ، والفصاحة تستهدف وضوح المعنى لتحقيق الفهم والإفهام ، ومن أجل ذلك تراعى بساطة التركيب حتى تتلاءم مع معانيها بسهولة .

ونستطيع أن نفسر ضعف التأليف بشيئين اثنين هما :

١ ــ أن يكون المعنى الذى يريد المتكلم أن يعبر عنه غير واضح فى ذهن صاحبه ، وعندما يعبر عنه يلجأ إلى تراكيب لا تؤدى المعنى المراد .

٢ ــ أن تكون مقدرة المتكلم أو الكاتب فى الناحية اللغوية غير كاملة ، فيلجأ إلى التعبير عن معانيه بتراكيب يعتقد أنها صحيحة ، لكنها فى حقيقة الأمر ضعيفة أو غير صحيحة .

فراعاة قواعد اللغة أمر ضرورى عند نظم الكلام حتى تتضح معانيه التى يستهدف إيصالها إلى السامع أو القارىء ، ولقد أصاب البلاغيون عندما اشترطوا هذا الشرط فى فصاحة الكلام .

وسنوضح ــ إن شاء الله ــ ما يترتب على الضعف من نتائج كالغموض أو التعقيد بنوعيه .

٢ ــ خلوصه من تنافر الكلمات :

والجاحظ أول من فصّل القول فى تنافر الكلمات وأثره ، ويرى أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

وينقل الجاحظ إحساس الشعراء والرواة بكراهة تنافر الكلمات ، ووصفهم للكلام المتنافر بأنه كأولاد العَلاّت وكبعر الكبش ، كالبيت الذى أورده عن خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد عَلّة ... يكِدْنَ لسان الناطق المتحفِّظ

وكبيت أبى البَيداء الرِّياحىّ :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه ... لسانُ دعىٍّ فى القريض دخيل (١٢٠)

---

(١٢٠) البيان ج ١ ص ٦٦ ــ ص ٦٧ .

ومن أمثلة الألفاظ المتنافرة عند العرب ذلك البيت الذى أورده الجاحظ وذاع بين علماء البلاغة ، ونسبوه إلى الجن وهو :

وقبرُ حرب بمكان قفر وليس قربَ قبر حرب قبر

كما أورد بيتا لأحمد بن يسير فى أحمد بن يوسف حين استبطأه :

لم يضرّها ، والحمد لله ، شيء وانثنت نحو عزف نفس ذهول[١٢١]

ونقل البلاغيون البيت المنسوب إلى الجن وجعلوه شاهدا على المتناهى فى الثقل ، وجعله أبو الحسن الرمانى شاهدا على المتنافر الذى هو نقيض التلاؤم — عنده ، لأن التأليف فى نظره — على ثلاثة أوجه : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا[١٢٢] .

ومثال المتلائم الذى فى الطبقة الوسطى عند الرمانى الأبيات التى أوردها الجاحظ عن أبى حية النميرى والتى عدّها مثالا لما لا تتباين ألفاظه ولا تتنافر اجزاؤه وهى :

رمتنى وسترُ الله بينى وبينها عشيةَ آرام الكناس رميمُ
رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزالَ يهيم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتُها ولكنّ عهدى بالنضال قديم[١٢٣]

والمتلائم فى الطبقة العليا فى نظره يتمثل فى القرآن الكريم كله .

---

(١٢١) ج ١ ص ٦٥ ، والبيت قد سبقته الأبيات الآتية :

هل معين على البكا والعويل أم معز على المصاب الجليل
ميت مات وهو فى ورق العيش مقيم به وظل ظليل
فى عداد الموتى وفى عامر الدنيا أبو جعفر أخى وخليلى
لم يمت ميتة الوفاة ولكن مات عن كل صالح وجميل
لا أزيل الآمال بعدك انى بعدها بالآمال حق بخيل
كم لها وثقة بباب كريم رجعت من نداه بالتعطيل

(١٢٢) ثلاث رسائل ص ٨٧ .

(١٢٣) ثلاث رسائل ص ٨٧ ، البيان ج ١ ص ٦٨ ، والبيت الثانى محذوف من الحماسة ص ٢٦٩ .

لكن ابن سنان الخفاجي يرفض هذا التقسيم ويرى أنه قسمة فاسدة لأن التأليف في نظره على ضربين فقط : متنافر ، ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ، ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسما ثالثا ، كما يكون المتنافر ما بعضه أشد في التنافر وأكثر من بعض كما لا يفرق الخفاجي بين القرآن الكريم وفصيح الكلام المختار من كلام العرب، وأن المتأمل في كلام العرب يجد ما يضاهي القرآن في تأليفه(١٢٤) .

كما يرى الخفاجي أن هذه دعوى فاسدة من أبي الحسن الرماني ولا تثبت إعجاز القرآن ، وإنما الإعجاز في نظر الخفاجي يتمثل في صرف العرب عن معارضته ، وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجار القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك ، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ماذهب اليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .. (١٢٥) .

والبيت المنسوب إلى الجن قد جعله القزويني وغيره شاهدا على المتناهي في الثقل كما أشرنا ، فالخطيب القزويني يقسم المتنافر من الكلمات إلى قسمين : المتناهي في الثقيل وما دونه . (١٢٦) .

ويفرق بهاء الدين السبكي بين التنافر الذي نتج عن تكرار الكلمة في البيت السابق وبين قوله تعالى : « . . وعلى أمم ممن معك » .

فكل كلمة في البيت على انفرادها خالية من التنافر ، ولكن الذي أحدث التنافر هو تكرار الحروف ، لكن تكرار الحروف في الآية - كما يرى السبكي - لا يحدث تنافرا لأن « . . في مخرجي الميم والنون وهما طرف اللسان والشفة

---

(١٢٤) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .
(١٢٥) سر الفصاحة ص ٨٨ - ص ٨٩ .
(١٢٦) شروح التلخيص ص ٩٦ - ص ١٠٠ .

وذلاقتهما وبوسطهما بين الضعف والقوة — ما أزال ثقل التكرار . . . .[١٢٧]

ويرى ابن سنان الخفاجي أن الذى أحدث الثقل فى البيت المنسوب إلى الجن هو أنه مبنى من حروف متقاربة ومكررة [١٢٨] .

فالعلة فى التنافر عند الخفاجى - هى تقارب الحروف فى المخارج مع تكرارها وهو بهذا يخالف ماذهب إليه الخليل وما نقله عنه أبو الحسن الرمانى من أن التنافر يحدث من البعد الشديد فى مخارج الحروف أو القرب الشديد . . وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد ، . وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال . . . [١٢٩] .

ويؤكد الخفاجى أن التنافر فى القريب فقط مستشهدا ببعض الكلمات البعيدة المخرج والتى لاتنافر فيها مثل كلمة (ألم) و (أو) و (أم) وهذه الكلمات تخالف الكلمات المبنية من مخارج متقاربة مثل (عح) و (سز) ويرى الخفاجى أن الإدغام والإبدال شاهدان على أن التنافر فى قرب الحروف دون بعدها ،لأنهما لايكادان يرادن فى الكلام الا فراراً من تقارب الحروف.[١٣٠] ولكن الرمانى يرجع العلة فى الإدغام والإبدال إلى القرب والبعد مما مؤكدا بذلك مارآه الخليل بن أحمد .

وفى الحقيقة أن التنافر يرجع إلى ماذهب إليه الخفاجى ، أى أن قرب مخارج الحروف مع تكرارها يحدث تنافرا فى الكلمات المنظومة. فالتنافر الذى حدث فى البيت الآتى :

---

(١٢٧) عروس الافراح ص ١٠٠ .
(١٢٨) سر الفصاحة ص ٨٨ .
(١٢٩) سر الفصاحة ص ٨٨ .
(١٣٠) سر الفصاحة ص ٩١ .

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

قد حدث من تكرار الكلمات المتماثلة مع تقارب مخارج حروفها .

ومن أمثلة التكرار القبيح الذى يحدث ثقلا ، البيت الآتى :

لو كنْتُ كنتُ كتمت الحبَّ كنت كما كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وقول أبى تمام الذى أنشده أمام أحمد بن أبى دؤاد .

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأنْ يرضى المؤمَّل منك إلا بالرضى

وقول أبى الطيب المتنبى :

ولا الضَّعف حتى يبلغ الضعف ضعْفَهُ ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألفُ

وكقول المتنبى أيضا من قصيدة له فى مدح محمد بن عبد الله الخطيبى :

العارض الهتّن ابْنُ العارض الهتن ابـ ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

وكقوله أيضا من قصيدة له فى مدح الحسين بن إسحاق التنوخى :

لك الخير غيرى رام من غيرك الغنى وغيرى بغير اللاذقيّة لاحق

وقوله أيضا :

رمانى خساس الناس من صائب استه وآخر قطن من يديه الجنادل

فقلقلْتُ بالهمِّ الذى قلقل الحشا قلاقلَ عِيسٍ كلهن قلاقل

عَنَاثةُ عيشى أن تغثَّ كرامتى وليس بغث أن تغثَّ المآكلُ (١)

وفى البيتين الأخيرين قبح نتج عن شيئين : الأول تكرار الحروف داخل الكلمة ، والثانى تكراره للكلمة نفسها ، ويتمثل ذلك فى مادتى (قلقل) ، و (غث) .

---

(١٣١) قلقلت : حركت ، قلاقل العيس : النوق الخفيفة ، وقلاقل الثانية جمع قلقلة بمعنى الحركة ، والعناثة ، الرداءة أى أن رداءة عيشه فى رداءة كرامته لا فى رداءة مأكله .

ومن التكرار القبيح الموجب للثقل أيضا قول مسلم بن الوليد :

سَلَتْ وسلتْ ثم سلَّ سليلُها فأتى سليلُ سليلِها مسلولاً

وقول امرىء القيس بن حجر :

ألا إنني بالٍ على جمل بالٍ يقوُد بنا بالٍ ويتبعنا بالٍ

أما النوع الثانى من تنافر الكلمات وهو ما ليس متناهيا فى الثقل ، فهو أقل من النوع السابق ، ويصوره القزوينى فى بيت أبى تمام :

كريم متى أمدحْهُ أمدحه والورى معى، وإذا ما لمته لمته وحدى[١٣٢]

ويرى القزوينى أن الثقل قد نتج عن اجتماع الحاء مع الهاء وذلك لأن بينهما تنافرا ، ويخالفه بهاء الدين السبكى فى ذلك ، ويرى أن اجتماع الحاء والهاء فصيح لوروده فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ومن الليل فسبحه » .

والثقل فى البيت — كما يرى السبكى — قد نتج عن التكرار لكلمة (أمدحه) ويورد رأى حازم القرطاجى الذى يرى أن الثقل يحدث بسبب التكرار فى (أمدحه) وفى (لمته) .

وينقل السبكى رأيا يفرق بين وضع الحاء والهاء فى البيت ووضعهما فى الآية الكريمة : وقيل : إنما حصل الثقل عن اجتماع الحاء والهاء بعد الفتحة وليس ذلك فى الآية الكريمة[١٣٣] .

ويرى ابن رشيق أن فى بيت أبى تمام لونا من ألوان المعاظلة التى تقوم على تداخل الحروف وتراكيبها وذلك فيما نقل عن الصاحب بن عباد عن ابن العميد[١٣٤] .

---

(١٣٢) يورد الخفاجى البيت بمتى فى الشطرين :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى ما لمته لمته وحدى

(١٣٣) عروس الافراح ص ١٠٠ — ص ١٠١ .

(١٣٤) العمدة جـ ٢ ص ٢٦٤ — ص ٢٦٥ ومثله بيت لكعب بن زهير :

تبدو عوارض ذوى ظلم اذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

وينقل السبكى فى موضع آخر عن حازم رأيا يرى فيه أن بيت أبى تمام السابق حسن : « فإنه لا سبيل إلى التعبير عن هذا المعنى إلا بالتكرار . . وكذلك كل ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار فهو حسن ، فهذا بيت تكررت فيه حروف الحلق وتكررت فيه ألفاظ ، وهو يحسن . . ، وما لا يمكن التعبير عنه إلا بالتكرار فحسن وإن خالف فيه بعضهم قول المتنبى :

وحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ وحارث لقمان ، ولقمان راشد(١٣٥)

ولقد سبقه الخفاجى فى نفى القبح عن هذا البيت بسبب التكرار ، لأن المعنى المقصود — فى نظره لا يتم إلا بهذه الصورة والذى نفى القبح عنه أنه ذكر أجداد الممدوح على نسق واحد من غير حشو ولا تكلف لأن أبا الهيجاء هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد .

ويرى الخفاجى أنه لو ورد هذا الكلام نثرا لم يرد إلا على هذه الصفة(١٣٦).

ويسمى ابن رشيق القيروانى هذا النوع من التكرار الذى يعتمد على تتابع الأسماء (الاطراد) والاطراد يكون فى نظره صنعة حسنة إذا حدث من غير تكلف ولا حشو فارغ لأن الاطراد عندئذ يدل على قوة طبع الشاعر مثل قول الأعشى(١٣٧) .

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ويرى ابن رشيق أن بيت المتنبى السابق فيه تعسف وتقصير ، ووضع ذلك البيت وسط بيتين من تلك القصيدة الموجهة لسيف الدولة — ليظهر القبح الذى قصد ابن رشيق إبرازه :

---

(١٣٥) عروس الافراح ص ١١٩ .
(١٣٦) سر الفصاحة ص ٩٢ .
(١٣٧) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده جـ ٢ ص ٨٢ .

فأنت أبو الهيجا ابن حمدان يا ابنه ... تشابه مولود كريم ووالدُ
وحمدان حمدونٌ وحمدون حارثٌ ... وحارث لقمانٌ ولقمان راشدُ
أولئك أنياب الخلافة كلهـــا ... وسائر أملاك البـــلاد الزوائد

ويرى ابن رشيق أن الذى مقت شعره هذا تكريره كل اسم مرتين فى بيت واحد ، وهم أربعة أسماء(١٣٨) .

وفكرة تنافر الكلمات التى تضمنتها شروط فصاحة الكلام — تكمل ما قيل عن التنافر المتعلق بالحروف ، لأن العوامل التى تؤدى إلى تنافر الحروف هى التى تؤدى أيضاً إلى تنافر الكلمات ، ومع أن القدماء قد اختلفوا فى تفسير التنافر على نحو ما رأينا عند البلاغيين واللغويين إلا أنهم أصحاب فضل يجب أن يذكر لهم .

ونرى أن فكرة التنافر يجب ألا تجزأ بين الحروف والكلمات كما فعل علماء البلاغة ، والعلاقة بين الثقل والتنافر هى علاقة تقوم على الخصوص والعموم أو الجزئية والكلية ، فالثقل أعم من التنافر ، أو أن التنافر جزء من الثقل ، لأن الثقل قد يحدث من التنافر وغير التنافر ، كما أن كل ما هو متنافر ثقيل على اللسان . ولو أن البلاغيين قد استبدلوا بالتنافر الثقل لكان ذلك أشمل فى نظرنا . وبعض البلاغيين قد فصل بين الثقل والتنافر وجعلوا الخلوص من الكراهة فى السمع شرطا من شروط الفصاحة يغاير التنافر ، كما اشترطوا اعتدال الكلمة فى عدد حروفها ، وهذان الشرطان يستهدفان الخلوص من الثقل إلى جانب التنافر ، فكلمة الثقل أشمل كثيرا من كلمة التنافر .

---

(١٣٨) العمدة ص ٨٤ : ومن النقد الذى وجهه ابن رشيق الى أبيات المتنبى هذه أنه جعل للخلافة انيابا وجعلها سبعة ، والانياب المتعارف عليها أربعة ، وجعلها سبعة أنياب بقربها من صفات تمساح النيل أو الكلب فان أنياب كل واحد منهما ثمانية .

والخلوص من الثقل والتنافر الناتج عن التراكيب يجعل الكلام موصوفا السلاسة ، والعذوبة ، وحسن الوقع فى السمع ، كل هذا وغيره مطلب هام تسعى الفصاحة إلى تحقيقه ، والميل إلى الثقل إنما يرجع قبل كل شيء إلى الطبع الجافى ، والذوق الخشن ، والمزاج الشاذ ، وهى عوامل مركبة فى نفس صاحبها ، وتبعده عن الأسوياء من الناس . كل ذلك إذا كان الميل إلى الثقل إراديا ومقصودا . أما إذا كان المتكلم أو الكاتب يعبر عما يريد بألفاظ ثقيلة عن غير قصد فهو يمثل أولئك الذين تنقصهم الثقافة اللغوية الواسعة التى تهيىء لصاحبها فرصة انتقاء الألفاظ التى يحلو سماعها فى الأذن ، وقد يرجع ذلك أيضا إلى وجود ذلك الانسان فى بيئة مغلقة .

وظاهرة التنافر ترجع إلى أشياء عديدة : منها التجاور المباشر فى مخارج الحروف ، وكذلك عدم شيوع اللفظة على الألسنة ، وسنحاول تعليل التنافر فى الباب الآتى — إن شاء الله — ولقد أشرنا فى فصاحة المفرد إلى ما قد ينتج عن التنافر من حكاية للأصوات توافق معانيها عما قد يراه ويتحمس له بعض الباحثين فى الأدب . وقضية التنافر قد يكون لها وجه من القبول لدى أولئك الذين يغلّبون الناحية الذوقية ، ونحن لا نمانع فى قبول التفسير الجمالى للتنافر بشرط عدم إخلاله بفصاحة الكلام ، التى تعنى أيضا عذوبة الألفاظ وسلاستها ووقعها الحسن فى المسامع .

٣ ـ الخلوص من التعقيـــد :

ويقصد بالخلوص من التعقيد أن يكون ظاهر الدلالة على المراد ، فلقد اصطلح البلاغيون المتأخرون على تفسير التعقيد بأنه ما لايكون ظاهر الدلالة على المراد به .

وللتعقيد سببان : أحدهما يرجع إلى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ، ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه .

والثانى ما يرجع إلى المعنى وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهرا.

وهذا التقسيم هو ما أورده القزوينى(١٣٩) وتبعه فى ذلك شراح التلخيص وغيرهم من البلاغيين المتأخرين.

والتعقيد اللفظى:

يحدث الخلل فى نظم الكلام، وذلك بأن تكون الألفاظ على خلاف ترتيب المعانى وذلك لأسباب منها: التقديم والتأخير، أو الحذف الموجب للفساد، أو العطف على التوهم، والجر بالمجاورة، وما شابه ذلك مع عدم وجود قرينة ظاهرة لفظا أو معنى مع تمكنه.

ويتوقف البلاغيون عند بيت منسوب الى الفرزدق ليستدلوا به على التعقيد اللفظى فيه وهو من أبيات يمدح بها ابراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مِثْلُهُ فى الناس إلاّ مُمَلَّكاً أبُو أمِّه حَيٌّ أبُوه يُقارِبُهْ

يريد وما مثل ابراهيم الممدوح فى الناس حىّ يقاربه إلا ملكا، وهو هشام أبو أمه، والضمير فى (أمه) للملك، وفى (أبوه) للممدوح، ويتمثل التعقيد فى هذا البيت فيما يلى:

١ — فصل بين المبتدأ وهو (أبو أمه) والخبر وهو (أبوه) بكلمة (حىّ)

٢ — فصل بين المبتدأ وهو (مثله) والخبر وهو (حى) بقوله (فى الناس إلا ملكا أبو أمه).

٣ — فصل بين الموصوف وهو (حى) والصفة وهى جملة (يقاربه) بكلمة (أبوه).

---

(١٣٩) شروح التلخيص ص ١٠٢.

٤ — قدم المستثنى وهو (مملكا) على المستثنى منه وهو (حيّ يقاربه)[١٤٠].

ويرى ابن رشيق القيروانى أن بيت الفرزدق هذا قد اشتمل على أسباب الإشكال فى الكلام جميعاً ، وهى ثلاثة عنده هى : هى التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، وإيقاع المشترك . وكل ذلك اجتمع فى بيت الفرزدق ، فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب ، وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله (أبو أمه ابوه) وكان يجزئه أن يقول (خاله) ، وأما المشترك فبقوله (حى يقاربه) ، لأن لفظة (حىّ) تشترك فيها القبيلة والحىّ من سائر الحيوان المتصف بالحياة[١٤١] .

ومن أمثلة هذا اللون من التعقيد قول عروة بن الورد العبسى[١٤٢] :

قلت لقوم فى الكنيف تروّحوا ... عشية بتنا عند ماوَانَ رزّحِ
تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم ... إلى مستراح من حمام مبرّحِ

لأن تقديره : قلت لقوم رُزّح فى الكنيف عشية بتنا عند ماوَانَ تروحوا تنالوا الغنى و (ما وان) ماء أو قرية فى أودية العلاة بأرض اليمامة ، والرزح هم المهازيل الساقطون .

---

(١٤٠) فى البيت اعاريب : منها ان مملكا بدل من حىّ قدم فانتصب . وقيل (حىّ) بدل من (مثله) وقيل : مثله اسم ما ، ولا يصح لأنه يلزم نصب الخبر ثم الفرزدق تميمى لا يعمل ما . وأحسن من ذلك كله أن يجعل مثله فى الناس مبتدأ وخبرا ، والا مملكا فى موضعه . وحى خبر ثان .

(١٤١) العمدة جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ ويذكر ابن رشيق ذلك عن الرمانى لكن هذا الذى ينسبه الى الرمانى لم يرد فى « النكت فى اعجاز القرآن » ولعله قد نقله من كتاب آخر .

(١٤٢) الأغانى يروى البيت كما يلى :

أقول لأصحاب الكنيف تروحوا ... عشية قلنا حول ما وان رزّح

ونشأ التعقيد فى هذا البيت (الأول) عن الفصل الذى حدث بين الصفة والموصوف ، والأمر وجوابه .

ومثال ذلك أيضاً قول المتنبي .

المجدُ أخسرُ والمكارمُ صفقةً من أن يعيش لها الهمام الأروع

وتقريره : المجد والمكارم أخسر صفقة .

ونشأ التعقيد فى البيت عن التقديم والتأخير ، كما فصل بين المعطوف والمعطوف عليه .

وكقول المتنبي أيضاً :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمُهْ بأن تسعدا والدمع أشقاه ساجمُهْ

وتقديره : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه .

ففيه فصل وتقديم وتأخير .

وكقوله أيضاً :

جفختْ وهم لا يجفخون بهابهم شِيَمُ على الحسب الأغر دليل

ففصل بين الفعل والفاعل (جفخت شِيمُ) وما بينهما اعتراض .

وكقول الفرزدق :

وترى عطية ضـــاربا بفنائه رِبْقَيْنِ بين حظائر الأغنام

متقلدا لأبيه كانت عنـــده أرباق صاحب ثلّة وبهام

وتقدير البيت الثانى : متقلدا أرباق ثلة وبهام كانت لأبيه عنده .

ففيه تقديم وتأخير .

وكقول الفرزدق أيضاً :

فليست خراسانُ التى كان خالدُ بها أسدٌ إذ كانَ سَيْفاً أميرُها

وتقديره : ليست خراسان بالبلدة التى كان خالد فيها سيفا إذ كان أسد

أميرها ،ويكون رفع أسد بكان الثانية ،وأميرها نعت له ، و (كان)تكون عند ذلك تامة لا تحتاج إلى خبر ، ولها وجه آخر هو أن يكون فى (كان) ضمير الشأن، ويكون أسد وأميرها مبتدأ وخبرا فىموضع خبر الضمير . وعلى التأويلين معاً ، فلا خفاء بقبح البيت والتعسف فيه ، ووضع الألفاظ فى غير موضعها . ويرى الخفاجى أن الفرزدق أكثر الشعراء استعمالا لهذا اللون وكأنه يتعمده ويعتقد حسنه(١٤٣) .

وينقل السبكى أبياتا فى التعقيد أنشدها ابن الطراوة فى باب ما يحتمل الشعر من الكلام على أبيات سيبويه(١٤٤) ومن هذه الأبيات :

لها مقلتا عيناء طل خميلة من الوحش ما تنفك ترعى عرارها

أى لها مقلتا عيناء من الوحش ما تنفك ترعى خميلة طل عرارها .

ومثله قول الفلاح :

فما من فتى كنا من الناس واحدا به نبتغى منهم عديلا نبادله

وقول الآخر :

وما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم من الناس ذنبا جاءه وهو مسلما

أى ما كنت أخشى الدهر إحلاس مسلم مسلما من الناس ذنبا جاءه .

وأنشد السكاكى بيت أبى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ولم يكن كاثنين ثانٍ إذ هما فى الغار(١٤٥)

---

(١٤٣) سر الفصاحة ص ١٠٢ .

(١٤٤) عروس الافراح ص ١٠٦ .

(١٤٥) مفتاح العلوم ص ١٩٧ ى وورد هذا البيت فى عروس الافراح ص ١٠٦ كما يلى :

كاثنين فى كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان اذ هما فى الغار

وبرد فى الديوان جـ ٢ ص ٢٠٧ :

ثانية فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما فى الغار

ونشأ التعقيد فى بيت أبى تمام من إتيانه بالمنصوب فى لفظ المخفوض (لاثنين ثان) وهذه لغة للعرب عند الفراء . كما نشأ أيضا عن فساد المعنى ، ومعنى البيت أن الرجل الذى قتل وهو (مازَيّار) ثان للآخر . والرجلان مذمومان أما اللذان كانا فى الغار فهما محمودان .

ومن الممكن ألا تكون هناك ضرورة إذا أثبت التنوين فى (ثانٍ) وألقيت عليه حركة الهمزة فى (إذْ) وهذا مذهب ورش فى القراءة [١٤٦] (ثانِنِد) .

وهل يعنى هذا أنه يمكن أن نستغنى عن التعقيد اللفظى بضعف التأليف ، أو نستغنى عن ضعف التأليف بالتعقيد اللفظى . . . ؟

يرى الشيخ بهاء الدين أن أحدهما لايغنى عن الآخر [١٤٧] لأن التعقيد قد يكون لاعن ضعف تأليف ، كما أنه قد ينشأ أحيانا عن ضعف فى التأليف كما فى :(ضرب غلامه زيدا) لأنه يوهم عودة الضمير على غير زيد .وقد يحدث الضعف بلا تعقيد وقد يحدث التعقيد من أشياء كلها جائزة إذا اجتمعت أوجبت صعوبة فى الفهم مثل تقديم المستثنى، وتقديم المفعول ، وتأخير المبتدأ ،لأن مناط التعقيد هو صعوبة الفهم ، وللطبع دور كبير فى ذلك .

هذه بعض النماذج والصور للتعقيد الذى يتعلق بنظم الألفاظ . .

التعقيد المعنوى :

هو ماكان الانتقال من معناه الأول إلى معناه الثانى الذى هو المراد غير ظاهر ، ولايستطاع فهمه من أول وهلة بسبب الانتقال الذى حدث بالكناية أو الاستعاره أو المجاز .

وقد توقف البلاغيون المتأخرون عند بيت للعباس بن الأحنف ليبينوا ما فيه من تعقيد معنوى ناتج عن الانتقال وهو قوله :

---

(١٤٦) ديوان أبى تمام جـ٢ ص ٢٠٧ .
(١٤٧) عروس الافراح ص ١٠٥ .

سأطلب بُعْدَ الدارِ عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

ويكاد يجمع البلاغيون المتأخرون (١٤٨) على أن العباس بن الأحنف قد أصاب حين كنى عن حزنه بسكب الدموع لما فعله الفراق فى نفسه .

أما التعقيد فى البيت فإن يتمثل فى خطئه عندما أراد أن يكنى عما يوجبه التلاقى من السرور بجمود العين ، لظنه أن الجمود وخلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شىء آخر يجلب السرور والراحة وهذا خطأ ؛ لأن الجمود خلو العين من البكاء ، وفى حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة بل كناية عن البخل ، ويستشهد القزوينى على أن جمود العين يراد به البخل ببيت لأبى العطاء يرثى به ابن هبيرة :

ألا إنّ عيناً لم تَجُدْ يوم واسط عليك بجارى دمعها لجمودُ

يؤكد القزوينى فكرته قائلا : « ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حالة المسرة لجاز أن يُدْعَى به للرجل فيقال : لازالت عينك جامدة ، كما يقال لا أبكى الله عينك ، وذلك مما لا يشك فى بطلانه ، وعلى ذلك قول أهل اللغة : سَنَة جماد لا مطر فيها ، وناقة جماد لا لبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادا إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جمودا إلا وهناك ما يقتضى إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفه بأنها قد جادت وإذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت » (١٤٩) .

وهذا الخلل الموجود فى بيت العباس بن الأحنف قد أدى إلى التعقيد الذى

---

(١٤٨) هذا ما ذكره القزوينى وتبعه شراح التلخيص ، وخالفهم السبكى عندما قال : « لا حاجة الى الكناية بالبكاء ، وجاز أن يكون أراد حقيقته » أنظر شروح التلخيص ص ١٠٩ ـ ص ١١٠ .

(١٤٩) الايضاح على تلخيص المفتاح ص ١١٠ ـ ص ١١١ .

نتج عن الانتقال من المعنى الأصلى للفظة إلى معنى آخر ملابس للأصلى على وجه الكناية . . والكناية فى قوله (لتجمدا) بعيد عن الفهم والواجب فى الكناية أن يكون الفهم لها سريعاً ، وأن تكون قريبة مما تعارف عليه أهل الذوق السليم . والذى يؤدى إلى البطء أو عدم فهم الكناية كثرة الوسائط والقرائن غير الواضحة لكن قد تكثر الوسائط من غير صعوبة وذلك لوضوحها لدى أهل الذوق ، وقربها مما تعارفوا عليه مثل قولهم : (كثير الرماد) كناية عن المضياف الكريم ، ففى قولهم (كثير الرماد) وسائط كثيرة ، ولكن ماتعارف عليه أهل الذوق من العرب قد جعل الانتقال إلى المعنى المراد سريعاً ومدركا بوضوح .

كما نتج عن التعقيد فى البيت محاولة البحث عن وجوه بعيدة لتوضيح مراد الشاعر ، ومن هذه الوجوه :

ما فسره المبرد عندما قال فى تفسير هذا البيت : هذا رجل فقير يبعد عن أهله ، ويسافر ليحصل على مايوجب لهم القرب ، وتسكب عيناه الدموع فى بعده لتجمد عند وصوله لهم . ويؤكد المبرد فكرته بانشاده لهذا البيت :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

ولم يستطع المبرد بهذا التفسير أن يبعد عما توجبه كلمة (تجمد) لأن الجمود هنا منسوب للعين . وعلى هذا يكون مقصد المبرد « وتسكب عيناه الدموع فى بعده لتبخل بالدموع المطلوب سكبها عند وصوله لهم » . فالمبرد لم يستطع أن يتخلص من دلالة « تجمد » عندما أراد تفسير البيت من وجهة نظر أخرى ، لأن جمود العين قد استقر فهمه مع البخل بجريان الدمع الذى يرجى جريانه .

ومن الوجوه الأخرى فى هذا البيت ما ذكره ابن يعقوب المغربى فى مواهب الفتاح ، ويتلخص ذلك الوجه فى أن الزمان والأحبة من عادتهم عكس المراد والشاعر يطلب خلاف المراد لعله يغالطهم فيأتون بالمراد . وهذا الوجه فى نظر

ابن يعقوب يحسّنه إظهار أن القائل يطلب مغالطة الزمان على وجه الظرافة والتمليح (١٥٠) .

وهذا الوجه لايخلو من الفساد من وجهة نظرنا لأن المغالطة قد تحدث متبادلة من الجانبين أى أن الزمان قد يغالط الشاعر فيأتى بعكس ما يرجو فى الظاهر ، وفى الوقت الذى يغالط الشاعر فيه الزمان قد يأتى بعكس الظاهر من رجائه .

ويذكر ابن يعقوب المغربى وجها آخر فى البيت هو أن المراد بالطلب ارتكاب فعل الطالب بإظهار عدم الضجر الحاصل بالصبر ، وتوطين النفس على المكروه إلى إفاضة الدموع ليحصل عن ذلك دوام السرور بدوام التلاقى ، فان الصبر مفتاح الفرج . (١٥١)

وهذا الوجه لم يخرج شيئا مقبولا لقوله (لتجمدا) وإنما قد أغفل ماتوحى به من اختلافات وتعقيد . وهذا المعنى قد أشار إليه الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الإعجاز ، لكن عبد القاهر الجرجانى قد عاب على الشاعر كنايته فى قوله (لتجمدا) ، فكأنه قال : أحزن اليوم لئلا أحزن غدا ، وتبكى عيناى جهدهما لئلا تبكيا أبدا . وغلط فيما ظن ، وذاك أن الجمود هو ألا تبكى العين ، مع أن الحال حال بكاء ، ومع أن العين يراد منها أن تبكى ، ويشتكى من ألا تبكى .. (١٥٢)

وقد يحدث التعقيد أيضا من الكلام المقلوب كقول عروه بن الورد العبسى:

فلو أنى شهدت أبا سعاد غداة غد لمهجتة يفوق
فديتُ بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيقُ

يريد أن يقول : فديت نفسه بنفسى .

وكقول خِدَاش بن زهير :

وتُركب خيلٌ لاهوادةَ بينها وتشقى الرماحُ بالضياطرة الحمرِ

---

(١٥٠) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١١ ، الكامل للمبرد .
(١٥١) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح ص ١١٢ .
(١٥٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٩ .

والضياطره هى التى تشقى بالرماح . (١٥٣) .

وكذلك قول الفرزدق :

وأطلسَ عسال وما كان صاحبا رفعتُ لنارى مَوْهناً فأتانى

وإنما النار هى المرفوعة .

وكقول النابغة الجعدى :

كانت فريضة ماتقول كما كان الزناء فريضة الرجم

وإنما الرجم فريضة الزنا .

وقد ينشأ التعقيد أيضا عن الاستعارات الفاسدة قول تأبط شرا :

نحزُّ رقابهم حتى صدعنا وأنفُ الموتِ منخرُه رثيم

فجعل للموت أنفا ومنخرا رثيما (١٥٤) .

وكقول ذى الرمة .

يعز ضعافَ القومعزةُ نفسه ويقطع أنف الكبرياء من الكبر

فاستعار للكبرياء أنفا ، وجعل الكبرياء يتكبر .

وكقول معقل بن خويلد الهذلىّ :

تخاصمُ قوما لاتلقّى جوابهم وقد أخذتْ من أنف لحيتك اليد

فجعل للحية أنفا ، وقبض هذه اللحية التى لها أنف بيده كما يفعل المهموم .

وكالبيت الذى نقله الخفاجى عن أستاذه أبى العلاء أحمد بن سليمان المعرى (١٥٥)

إذا ذنّ أنف البرد سرتم فليتهُ عقيب التنائى كان عوقب بالجدع

فجعل للبرد أنفا تسيل منه الرطوبة .

ومن هذه الاستعارات التى تؤدى إلى الإحالة والفساد قول أبى تمام :

لدَى ملكٍ فى أيكة الجود لم يزل (١٥٦) على كبد المعروف مِنْ نَيْله بَرْد .

---

(١٥٣) الضباطرة الضخام الاجسام الذين لا غناء عنـــدهم . انظـر ص ١٠٤ من سر الفصاحة .

(١٥٤) من قولهم رثمت أنف الرجل فهو رثيم : اذا ضربته فأدمى .

(١٥٥) سر الفصاحة ص ١٢٨ . ذنّ أنف البرد : سالت منه الرطوبة .

(١٥٦) فى سر الفصاحة « الى ملك فى أيكة الجود لم يزد » ص ١٣٤ .

وكقوله أيضاً :

وما المال أحمى عنك من جيش مدحة ... لها عند أبواب الملوك معسكر

لها عند آذان الرواة مزامر (١٥٧) ... من الذكر لم تنفخ ولا هى تزمر

وكقوله أيضاً :

سعى فاستنزل الشرف اقتسارا ... ولو لا السعى لم تكن المساعى

فاستنزال الشرف وصف بما لا يليق به من الإنزال الخفض . والمحمود فى هذا أن يقال :

« رفعت منار الشرف وشيدته » .

وكقوله :

جذبت نداه غدوةً السبت جذبةً ... فخرّ صريعاً بين أيدى القصائد

فجعل الممدوح لا يعطيه طوعا كما جل نداه صريعا ، وهذا لا يليق فى مقام المدح .

وكقوله أيضا :

ضعفت جوانح من أذاقته الهوى ... طعمَ الفراق فذمّ طعم العلقم

فربط بين طعم العلقم المذموم وبين ضعف الجوانح ، وليس بينهما علاقة لان العلقم يتعلق بحاسة الذوق .

وقد يدخل هذا أحيانا فى باب المعاظلة ، وهى دخول بعض الكلام فيما ليس من جنسه أو ما يمكن أن يطلق عليه فاحش الاستعارة .

وقد ينشأ التعقيد أيضاً من استعمال ألفاظ المدح فى الذم أو ألفاظ الذم فى المدح . كقول أبى نواس :

جاد بالأموال حتى ... حسبوه الناس حمقا

---

(١٥٧) سر الفصاحة « لها بين أبواب الملوك مزامر » .

وقول أبي تمام :

مازال يهذى بالمكارم دائبا حتى ظننا أنه محمومُ

وقوله :

وتشقى الحرب منه حين تغلى مراجلها بشيطان رجيمِ

وقوله :

ولىّ ولم يظلم وهل ظَلَمَ امرؤ حشّ النجاء وخلفه التنينُ

كقوله :

يا أبا جعفر جعلت فداكا فانحسنَ الوجوه حسن قفاكا

كقول الحسين بن الضحاك :

كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

ومثل هذا كثير . ومن الممكن أن تضيف إلى ذلك ما أشرنا اليه سابقا عن الكناية وما يجب أن تكون عليه من التصريح المناسب ، والبعد عن الغموض .

كما يمكن أن تضيف فى التعقيد ما أشرنا اليه سابقا فى الغرابة التى تنتج عن الألفاظ الخاصة بطائفة معينة كألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين وغيرهم .

وخلاصة ذلك أن التعقيد يفسد فصاحة الكلام، وأنه ينشأ عن أشياء كثيرة، وسبب ذلك قلة الطبع وحب التكلف وعدم وضوح الفكرة فى ذهن الأديب، وعدم رقى الذوق لدى المتكلم أو الكاتب، كما يرجع أيضاً إلى عدم تمكن الشاعر من أداته التعبيرية

وإلى جانب هذه الشروط التى اشتراطها القزوينى وغيره فى فصاحة الكلام يوجد شروط أخرى أضيفت إلى الشروط السابقة وأهمها :

٤ ـ خلوص الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات :

ويستدل القزوينى على كثرة التكرار ببيت أبى الطيب المتنبى فى وصف فرسه :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

كما يستدل على تتابع الإضافات بقول ابن بابك :

حمامة جرعا حومة الجندل اسجعى فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

ويرى القزوينى أن كثرة التكرار وتتابع الإضافات لا يعد شرطا مستقلا لأن ذلك إنْ أفضى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه فيما سبق الحديث عنه فى التنافر ، وإذا لم يحصل عنه ثقل فـــلا ضرورة للاحتراز منهما لأنهما لا يخلان بالفصاحة فى نظره(١٥٨) .

واعترض الشيخ بهاء الدين السبكى على ما ذكره القزوينى بأن التكرار المؤدى إلى الثقل قد احترز عنه فى التنافر الناتج عن الكلمات المتمائلة كما فى البيت المنسوب إلى الجن « وقبر حرب .. » ، أما التنافر الذى يحصل من تتابع الإضافات فلم يحترز عنه(١٥٩) .

وهذا فى نظرنا لا يسوِّغ له أن يفرد له شرطا مستقلا وإنما يجب أن يوضع فيما يوجب التنافر ، لأن التنافر قد يرجع إلى أشياء كثيرة منها تتابع الاضافات.

فالقزوينى لا يعد هذا شرطا مستقلا فى فصاحة الكلام ، بل ربما يكون شرطا فى الكلمات المتعددة التى لا إسناد بينها . ومن هذا الموقف استخلص السبكى أن القزوينى يقصد بالكلام ما زاد عن الكلمة . وبذلك يرى القزوينى أن حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف سيدنا يوسف عليه السلام لا خلل به بسبب التكرار وتتابع الإضافات : « .. الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » .

وهذا الحديث لا تعلق له بالإضافات ، أما التكرار الذى فيه فهو لا يرجع إلى شىء واحد بل كل اسم يختلف معناه عن الآخر ، أما بيت المتنبى فالتكرار فيه راجع إلى شىء واحد .

---

(١٥٨) شروح التلخيص ص ١١٢ ــ ص ١١٦ .
(١٥٩) شروح التلخيص ص ١١٦ .

والحقيقة ان التكرار قد يحسن فى مواضع ،وقد يقبح فى أخرى ،وقد يحدث التكرار فى الألفاظ دون المعانى ، كما يحدث فى المعانى دون الألفاظ ، وتكرار الألفاظ والمعانى يؤدى غالبا إلى القبح ،وقد يحسن التكرار على سبيل الاستعذاب والتشوق فى الغزل والنسيب ، وفى المدح على سبيل التنويه بالممدوح ، وعلى سبيل التقرير والتوبيخ ، وعلى سبيل التعظيم — وغير ذلك .

وقد يحدث القبح فى كل ذلك إذا تجاوز الحد وزاد عن الواجب كالبيت المروى عن محمد بن مناذر البصيرى فى معنى التكثير :

كم وكم كم كم وكم كم وكم قال لى : أنجز حر ما وعدْ

ومن التكرار المعيب أيضا ما أورده ابن رشيق القيروانى فى العمدة من قول ابن الزيات :

أتعزُف أم تقيُم على النصابى فقد كثرت مناقلة العتاب
إذ ذكر السلوّ عن التصابى نفرت من اسمه نفر الصعاب
وكيف يلام مثلك فى التصابى وأنت فتى المجانة والشباب
سأعزف إن عزفت عن التصابى إذا ما لاح شيب بالغُراب
ألم ترنى عدلت عن التصابى فأغرتنى الملامة بالتصابى

يقول ابن رشيق معلقا على التكرار فى هذه الأبيات : « فلأ الدنيا بالتصابى، على التصابى لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعر ، ولا سيّما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن[١٦٠١] .

ويصرح الخفاجى أن التكرار هو أكثر الأشياء قدْحا فى الفصاحة ،وغضا من طلاوتها ، وذلك إذا استطاع الشاعر أو الكاتب تجنبه ، ويورد أبياتا تدل على قبح التكرار ، وهذه الأبيات قد أوردنا بعضها عند الحديث عن التافر ومن

(١٦٠١) العمـــدة جـ ٢ ص ٧٧ .

ذلك قول مسلم بن الوليد الأنصارى(١٦١) .

سلّت وسلّت ثم سلّ سليلها فأتى سليل سليلها مسلولا

وبيت امرىء القيس :

ألا إننى بالٍ على جمل بالٍ يقود بنا بالٍ ويتبعنا بالٍ

ومن ذلك قول أبى الطيب :

العارضُ الهتنُ ابنُ العارض الهتنِ ابـ ـنِ العارضِ ابن العارضِ الهتن

وهذا البيت الذى عابه الخفاجى على أبى الطيب المتنبى على نسق ما جاء فى الحديث الشريف فى وصف سيدنا يوسف عليه السلام ، أى أن كل اسم فى البيت يختلف معناه عن الآخر .

ويحاول الشيخ بهاء الدين السبكى أن يضع حدودا ومعالم لهذا الشرط سنحاول ترتيبها فيما يلى :

١ ــ أن القول بالخلوص من كثرة التكرار وتتابع الإضافات موضوعه الخلوص منهما معا وليس كل واحد بمفرده .

٢ ــ أن التكرار أقل ما يصدق عليه ذكر الشىء مرتين ، فكثرة التكرار لا تصدق بذكره ثلاثا .

٣ ــ أن يكون التكرار وتتابع الإضافات فى جملة وليس فى جمل .

٤ ــ من شروط تتابع الإضافات :

(ا) أن تكون ثلاثا فأكثر .

(ب) أن لا يكون واحد منها جزءا أو كالجزء .

(جـ) أن لا يكون المضاف إليه الأخير ضميرا .

(د) أن لا يكون فيها إضافة فى علم .

---

(١٦١) شروح التلخيص من ص ١١٧ : ص ١٢١ .

وفى الحقيقة نرى التكرار مذكورا عند البلاغيين على أنه عيب مخل بالفصاحة إذا أدى إلى التنافر والثقل ، والتعقيد اللفظى ، كما أنه عيب فى باب الإيجاز ، كما ذكر القزوينى أنه عيب من عيوب الكلام فى باب القصر . كما أنه يحسن فى مواضع أشرنا إليها فيما سبق .

ويورد الشيخ بهاء الدين السبكى شروطا أخرى اعتبرها من فصاحة الكلام منها :

٥ ـ عدم تتابع الأفعال :

ولا يورد السبكى أمثلة على ذلك إنما يورد مثالا فى القرآن لا ينطبق على ما يذكره ويقول : وليس من ذلك قوله تعالى : « فاقتلوا منها المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم » لتوسط الواو وتعلق كل بمفعول مع زيادات فى الابتداء والانتهاء .

ويبدو أن السبكى يقصد تتابع الأفعال المتعمد والذى يؤدى إلى التعقيد مثل قول أبى الهميثل الأعرابى[١٦٢] .

فاصدق وعفْ وجُدْ وأنصفْ واحتمل واصفح ودارِ وكافِ واحلم واشجع واطفْ وَلِن وتأنَّ وارفق واتئد واحزم وجدَّ وحامِ واحلْ وادفع

وكقول ديك الجن :

أحلُ وامْرُرْ وضرَّ وانفع وَلِنْ اخ شن وَرِشْ وابْر وانتَدِبْ للمعالى

وكقول أبى الطيب المتنبى[١٦٣] .

أَقِلْ أَنِلْ اقطع احل علَّ سلَّ أَعِدْ زِد هشَّ بشَّ تفضَّل ادْنُ سُرَّ صِلِ

---

(١٦٢) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ ، الوساطة ص ٣٣٧ .

(١٦٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٣٣٧ ، ديوان المتنبى جـ ٣ ص ٨٩ ، العمدة جـ ٢ ص ٣٠ .

ومثل (١٦٤) .

عشِ ابق اسمُ سدْ قدْ جدْ مرِ انهَ ره فيه اسرِ زَلْ

غِظ ارمِ صبِ احمِ اغزُ رع زعْ دِ لِ اثنِ بل

ومثل هذه الأبيات يسميها ابن وكيع (رقية العقرب) لاحتياجها إلى الشرح لما بها من غموض ، ولعل الدافع إلى هذا التكلف هو الشغف بإظهار المهارة اللغوية فلقد استطاع المتنبى أن يجمع أربعة عشر فعلا للأمر فى بيت واحد .

ومن ذلك بيت امرىء القيس الذى أورد به ثمانية أفعال ماضية ويبدو أن الشعراء قد بالغوا فى محاكاة امرىء القيس فوقعوا فى الفساد وبيت امرىء القيس هو (١٦٥) .

أفادَ فجادَ ، وشادَ فزادَ وقادَ فذادَ ، وعادَ فأفضَلْ

ويضيف السبكى شروطا أخرى فى فصاحة الكلام لم يذكرها القزوينى وهى :

٦ ـ عدم تتابع الصفات المترادفة :

والسبكى لم يأت بشاهد على ذلك . ومن الشواهد التى قد تصدق على ذلك قول الكميت بن زيد :

كالناطقات الصادقا ت الواسقاتِ من الذخائر

وكقول أبى الطيب المتنبى :

الناعمات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا

ومما يدخل فى ذلك أيضا قول المتنبى :

---

(١٦٤) العمدة جـ ٢ ص ٣٠ ـ ره : من الورى أى اجعل المرض فى جوف أعدائك ـ فه : من الوفاء . اسر : من سرى الليل ـ رع : من الروع ، زع : من وزعت أى كففت . د : من الدية . ل : من الولاية . بل : من الوابل .

(١٦٥) الوساطة ص ٣٣٧ ، العمدة جـ ٢ ص ٣١ ، شعراء النصرانية ص ٦٢ .

دانٍ بعيد ، محبٌّ مبغض ، بهيجٌ أغرُّ ، حلو مر ، ليِّنٌ شرس

ندٍ أبيّ غرٍ وافٍ أخو ثقة جعدٌ سريٌّ به باد رضاً ندس

ومن تلك الشروط التى أوردها السبكى(١٦٦) مجملة :

٧ ـ كثـرة الألفاظ المصغـرة :

٨ ـ كثـرة التجنيـــس :

٩ ـ كثـرة الطبـــاق .

وهذه الشروط يمكن أن تندرج فى الشروط السابقة ، كالتنافر أو التعقيد اللفظى كما أن بعضها قد يدخل فى فصاحة المفرد .

وهذه الشروط التى اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام لابد أن تكون مجتمعة لأن تخلف أحد هذه الشروط يخل بالفصاحة إخلالا بيناً ، بل إن كلا منها يعتمد على الآخر إلى حد كبير ، فضعف التأليف قد يؤدى إلى التعقيد الذى يفسد المعنى ، كما أن تنافر الألفاظ يؤدى أيضا إلى التعقيد الخاص بالألفاظ ، كما تؤدى كثرة التكرار وتتابع الإضافات إلى التنافر بين الألفاظ .

فالخلوص من هذه الشروط مجتمعة يحقق الفصاحة للكلام ، وتخلف أحدها يفسد الفصاحة .

أما عن التكرار فإننا ننظر إليه من زاويتين ، زاوية الألفاظ ، وزاوية المعانى ، فالتكرار من الناحية اللفظية قد يحقق إيقاعا موسيقيا وذلك إذا كان قائما على وحدات متساوية من الأصوات التى اتصفت بالحسن ، أما إذا قام التكرار على أصوات أو ألفاظ توصف بالثقل أو الغرابة فإنها تؤدى إلى نتائج عكسية وهى التنافر وقبح الوقع فى المسامع .

ونحن نرى أن التكرار المؤدى إلى حسن الوقع فى السمع بما يحدثه من إيقاعات

---

(١٦٦) شروح التلخيص ص ١١٧ .

موسيقية مستساغة لايعيب الفصاحة من الناحية اللفظية ، كما نرى أن التكرار المؤدى إلى الثقل والتنافر بين الألفاظ — مخل بالفصاحة ويجب أن يجتنب .

أما التكرار من الناحية المعنوية فانه يرتبط بالإيجاز والإطناب والمساواة أى بدروس استقر وضعها فى علم البيان ، والتكرار أو الترداد يرتبط ارتباطا وثيقاً بمقامات السامعين أو القارئين ، أى أنه يحسن فى مقامات ، ولايحسن فى الأخرى ، والقرآن الكريم مثال يحتذى فى استعماله للتكرار ، فيكون الإيجاز عند مخاطبته العرب : يقول الجاحظ : « .. ورأينا الله تبارك وتعالى ، إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا ، وزاد فى الكلام . . »(١٦٧)

ويقول الجاحظ فى موضع آخر عن الترداد « وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون ، وشعيب وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبىّ غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب . . »(١٦٨) .

والجاحظ يسلك نفس المسلك القرآنى فى التكرار ، فيرى أن أحاديث القصص بوجه عام لايعيبها التكرار . كما قد سلك مسلكا تطبيقيا فى ذلك عندما حكى بعض النوادر فى كتابيه (البيان والتبيين) و (الحيوان) .

ومن ثم تتضح أمامنا محاسن التكرار وعيوبه ، فهو لايعيب الفصاحة إذا نتج عنه إيقاع موسيقى بألفاظ عذبة سهلة المخرج ، كما لايعاب أيضا فى أحاديث القصص والمواعظ والخطب إذا استهدفت أغراضا بلاغية أخرى .

---

(١٦٧) الحيوان جـ ١ ص ٩٤ .
(١٦٨) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٥ .

كما يعاب إذا نتج عن وجوده تنافر وثقل فى الألفاظ ، وإذا كان مقام الحديث يستوجب الإيجاز .

وبهذا نستطيع أن نرى أرضا مشتركة بين مجالات البحث فى فصاحة الكلام، ومجالات البحث البلاغى عامة ، كما يليق بنا أن نقرر فى هذا المقام أن الفصاحة لا تفصل دراستها عن المعنى ؛ فالألفاظ والمعانى متلازمتان فى البحث الفصاحى .

وبعد ، فهذه هى الشروط التى اشترطها البلاغيون لفصاحة الكلام ، ولقد اتفق المتأخرون على ثلاثة منها : هى الخلوص من الضعف فى التأليف ومن التنافر ومن التعقيدين اللفظى والمعنوى ، واختلفوا فى كثرة التكرار وتتابع الإضافات مما دفع بهاء الدين السبكى إلى وضع حدود لهذا الشرط . كما نقل شروطا أخرى لا نستطيع إفرادها عن الشروط السابقة لأنها تؤدى إلى نفس ما يحترز عنه لها مثل : عدم تتابع الأفعال ، وعدم تتابع الصفات المترادفة ، والخلوص من كثرة الألفاظ المصغرة ، وكثرة التجنيس والطباق . وكما ذكرنا آنفا فان هذه الشروط يمكن أن تصنف فى الشروط الثلاثة السابقة .

* * *

ثالثا ـ فصاحة المتكلم :

وفصاحة المتكلم كما يراها القزوينى : ملكة مقصودة بلفظ فصيح ، إلا إذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه ، وقيل يقتدر بها ولم يقل يعبر بها ليشمل حالتى النطق وعدمه . وقيل بلفظ فصيح ليعم المفرد والمركب (١٦٩) .

ويعلل السبكى سبب اختيار القزوينى للفظة « ملكة » وتركه لكلمة (صفة) لأن (الملكة) كيفية نفسانية راسخة . كما يفسر اختيار القزوينى لكلمة (يقتدر) وتركه كلمة (يعبر) لأنه لا يشترط النطق بالفعل .(١٧٠) أى أن المتكلم صاحب

---

(١٦٩) الايضـــاح ص ١٢١ .
(١٧٠) عروس الافراح ص ١٢٠ .

الملكة فصيح ولو لم يعبر أصلا . ومعناه أيضا أن من تكلم بكلام فيصح ولا ملكة عنده لايعد فصيحاً .

وفى الحقيقة أن الحديث عن الملكة قديم عند العرب بل غير العرب ، فلقد ذكر أرسطو الموهبة الشعرية فى كتابه (فى الشعر) وأن الدافع إلى الشعر فى نظره سببان هما المحاكاة وحب الموسيقى ، ويبدو أن الشعر — على العموم — قد ولده سببان ،وأن ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية ، فإن المحاكاة أمر فطرى موجود للناس منذ الصغر ، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريق المحاكاة . . . ، وإذا كان وجود المحاكاة لنا أمرا راجعا إلى الطبيعة ، وكذا وجود الإيقاع والوزن وبين أن — الأعاريض أجزاء الأوزان - فإن من كانوا مجبولين عليها منذ البدء قد أخذوا يرقون بها قليلا قليلا حتى ولدوا الشعر من الأقاويل المرتجلة ، (١٧١)

ومن أقدم النصوص العربية التى وصلت إلينا عن أهمية الملكة فى الإنتاج أو الابتكار ما أورده الجاحظ عن عامر بن عبد قيس عندما قال : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (١٧٢) .

ويؤكد الجاحظ أهمية الموهبة الفطرية فى الابداع الفنى فى وصيته التى يقدمها إلى ملتمس البيان فى قوله : « . . . وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك بعض المشاكلة ، ولقد أدرك الجاحظ المرحلة الدقيقة من الطبع ونقصد بها التفوق فى ناحية أو ناحيتين وهو ما يعرف فى عصرنا باسم المهارات الفردية

---

(١٧١) فى الشعر لأرسطو ترجمة حديثة للدكتور شكرى عياد « دار الكاتب العربى ط سنة ١٩٦٧ » ، ص ٣٧ ـ ص ٣٨ .
(١٧٢) البيان ج ١ ص ٨٣ .

والقدرات الخاصة وذلك عندما يقول : « . قد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ، وتكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة ، وتكون له طبيعة فى الحداء أو التغبير أو فى القراءة بالألحان ، وقد تكون له طبيعة فى الناى ، وليس له طبيعة فى السرناى وتكون له طبيعة فى قصبة الراعى ، ولا تكون له فى القصبتين المضمومتين ، ويكون له طبع فى صناعة اللحون ، ولا يكون له طبع فى غيرها ، ويكون له طبع فى تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع فى قرض بيت شعر ، ومثل هذا كثير جدا ، وكان عبد الحميد الأكبر ، وابن المقفع مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر الا ما لا يذكر مثله ، وقيل لابن المقفع فى ذلك فقال : الذى أرضاه لا يجيئنى والذى يجيئنى لا أرضاه . وهذا الفرزدق وكان مستهترا بالنساء ، وكان زير غوان ، وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور مع حسده لجرير وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط ، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا » (١٧٣) .

وهذا قريب مما رددده ابن قتيبه بعد ذلك عندما قال : « الشعراء بالطبع مختلفون فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثى ويتعذر عليه الغزل وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء قال : إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نظلم ، وهل رأيت بانيا لا يحسن أن يهدم ، وليس هذا كما ذكره العجاج ، ولا المثل الذى ضربه بشكل ، لأن المديح بناء والهجاء بناء ، وليس كل بان بضرب بصيرا بغيره ، ونحن نجد ذلك بعينه فى أشعارهم ، فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيبا وأجودهم تشبيها ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذى أخره عن الفحول . (١٧٤) .

---

(١٧٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٠٨ ـ ص ٢٠٩ .
(١٧٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ .

ولعل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني هو أول من تحدث من الملكة الشعرية حديثا قريبا من مفهومها الحديث حيث فرق بينها وبين الذكاء يقول في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه : « وأنا أقول — أيدك الله — إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته في الإحسان، ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث، والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولد، إلا أني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر، فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية .. ولا طريق للرواية إلا السمع، وملاك الرواية الحفظ. وقد كانت العرب تروي وتحفظ، ويعرف بعضها برواية شعر بعض كما قيل : إن زهيرا كان راوية أوس، وأن الحطيئة راوية زهير وأن أبا ذؤيب راوية جويرية . . غير أنها كانت بالطبع أشد ثقة وإليه أكثر استئناسا وأنت تعلم أن العرب مشتركة في اللغة واللسان وأنها سواء في المنطق والعبارة، وإنما تفضل القبيلة أختها بشيء من الفصاحة. ثم نجد الرجل منها شاعراً مفلقا، وابن عمه وجار جنابه ولصيق طنبه بكيئا مفحما، ونجد فيها الشاعر أشعر من الشاعر والخطيب أبلغ من الخطيب، فهل ذلك إلا من جهة الطبع والذكاء وحده القريحة والفطنة. »(١٧٥)

ويعود الجرجاني مرة أخرى إلى الكلام عن الطبائع واختلافها في موضع آخر من كتاب معللا ذلك الاختلاف بالآثار التي تتركها البيئة في نفس الشاعر : « .. وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر

---

(١٧٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ١٦ .

دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهرا فى أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كزّ الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه فى صوته ونغمته ، وفى جرسه ولهجته . ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى — وهو جاهلى — أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان ، لملازمة عدى الحاضرة وإيطانه الريف ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب . وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة واتصاف الطبع إلى الغزل،فقد جمعت لك الرقة من أطرافها(١٧٦) .

فالقدماء — اذن — قد أدركوا الدور الهام للملكة فى الإنتاج الأدبى ، كما أنهم لمسوا جوانب من فصاحة المتكلم ، وهى ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح كما حددها القزوينى .

والحقيقة أن كلمة (ملكة) تساوى فى مدلولها المعاصر ما أطلق عليه المحدثون (القدرات الخاصة) أو (الفروق الفردية) التى تميز بين الناس والتى تمكن الإنسان من النبوغ فى ناحية معينة ، وهذه (الملكة) أو (القدرة الخـــاصة) لا يستغنى صاحبها عن قدر معقول من (الذكاء العام) ففصاحة المتكلم لابد أن يتمتع صاحبها بشيئين أو بصفتين متلازمتين هما المقدرة الخاصة فى هذا الجانب ، وقدر مقبول من الذكاء العام ، ولقد أشار الجرجانى إلى ما يقترب من هذا عندما تحدث عن عناصر الموهبة الشعرية،فلقد ردها إلى الطبع والرواية والذكاء مع الدربة ، ولقد أدرك أن الطبع وحده لا يكفى كما أن الذكاء لا يغنى بنفسه .

وإذا سلمنا بأن فصاحة المتكلم تنحلّ إلى عاملين هما الذكاء العام والملكة

---

(١٧٦) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٧ ـ ص ١٨ .

أو القدرة الخاصة ، فما خصائص هذه الملكة التى يتميز بها الفصيح من الناس .. ؟

نرى أن الخاصة الأولى التى يتميز بها الإنسان الفصيح أن يكون متمتعا بذهن ثاقب يمكّنه من تصور المعنى الذى يريد التعبير عنه تصورا واضحا ودقيقا حتى يستطيع أن يختار لمعناه اللفظ المناسب ، ونعنى بالمناسب هنا اللفظ الذى لا يزيد ولا ينقص عن تأدية المعنى المراد التعبير عنه . ونستطيع أن نقول : يجب على المتكلم أن يعبر عن معناه بلفظ فصيح ، ولقد فصلنا القول — فيما سبق — فى الفصيح سواء كان مفردا أم مركبا .

الميزة الثانية التى يجب أن تتوافر للفصيح المتكلم تتصل بطريقة أداء أو إلقاء هذه الألفاظ التى اختارها للتعبير عن المعنى الذى يريده ، ونعنى بذلك عملية النطق وما يصاحبها من صفات تتصل بها . فقد يتفق اللفظ والمعنى عند متكلمين لكن أحدهما يفضل الآخر بما لديه من مهارات صوتية ، أو أن أحدهما يقل عن الآخر بما عنده من عيوب فى النطق . ولقد وصف العرب المتكلم الفصيح بأوصاف تتصل بالأداء فقالوا : فلان طلق اللسان أى فصيح عذب المنطق . وقالوا : إنه فتيق اللسان أى فصيح بيّن اللهجة ، كما قالوا عنه أنه الحذاقىّ : أى فصيح اللسان بيّن اللهجة والحجة ، قوله الفصل . كما وصفوه بأنه منطيق وفعفع ، أى حلو الكلام رطب اللسان . كما وصفوا الخطيب البارع — وهو متكلم فصيح — بأنه (مصقع) أى يأخذ فى كل صقع من الكلام ، كما وصفوه بأنه (مصدع) أى لا يبالى عند من تكلم ، وأين تكلم . كما وصفوه بأنه (مفوّه) و (منطيق) و (أشدق) .

ويعنى هذا أن المتكلم الفصيح يتمتع بالإضافة إلى ذكائه بأجهزة النطق الكاملة التى تمكنه من إخراج الألفاظ من الفصيحة المخرج الذى يتلاءم مع مكانتها ، ومن ثمّ فان منطقه يكون خاليا من العيوب التى تصيب الأداء ، وهذه العيوب نوعان :

نوع ينشأ عن قصور فى أجهزة نطق المتكلم أى أن أجهزة نطقه بها عيوب خلقيّة تمنعه من الأداء التكامل للألفاظ الفصيحة .

ونوع آخر ينشأ عن سوء استعمال أجهزة النطق السليمة الكاملة أى أن العيب قد ينشأ فى تلك الحالة من الخطأ أو التكلف أو غير ذلك .

ومن أمثلة النوع الثانى (التقعّر) و (المقمقة) أى التكلم بأقصى الحلق و (التغيهق) أى ملء الشدقين وتوسيعهما أثناء النطق ، ومثل (التشدّق) وهو أن يلوى المتكلم شدقه بكلام للتفصح وكذلك إذا فتح فمه واتسع . ومثل « التفصّح » أى التشبّه بالفصحاء ، ومثل (اللثغة) و (التمتمة) و (الفأفأة) أحيانا ، أى فى الحالات التى يكون العيب فيها ناتجا عن قصور غير عضوى .

ومن أمثلة النوع الأول مثل (الخنخنة) أى الذى لا يبين كلامه بسبب خنخنة فى خياشيمه ، وبذلك تخرج الكلمة من خياشيمه ومثل (الثغثغة) وهى تنتج عن اضطراب حركه أسنان المتكلم فى فمه فيختلط كلامه ولا يبين أو (الثغثغة) تنشأ عن سقوط الأسنان التى يسبب سقوطها ثقلا فى اللسان وخاصة عند الشيوخ ومثل : (الظأظأة) وهى تنشأ عن الأهتم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الأهتم الذى سقطت ثناياه العليا ، كما تنشأ عن الأعلم الذى شقّت شفته العليا . من ذلك أيضا (اللّثغة) وتنشأ عن عدم إتمام حركة اللسان فى الكلام فيتسبب عن ذلك نطق حرف آخر غير الذى يراد نطقه مثلما يحدث فى الراء التى تنطق يـــاء أو غينا . ومن ذلك أيضا صاحب (الحكلة) و (الحبسة) و (العقدة) وهى حالات توقف طلاقة المتكلم وتنشأ غالبا عن إلتواء وغلظ فى اللسان .

ومن العيوب أيضا ما ينشأ عن أمراض نفسية مثل (التهتهة) و (اللجلجة) و (الرتّة) وكذلك (الفأفأة) و(التمتمة) .

وهذه العيوب إذا خلص المتكلم منها صار فصيحا ، وإذا حاولنا أن نبين أهم ملامح الملكة التى يتمتع بها المتكلم الفصيح فأننا نردها إلى :

جهارة الصوت ووضوحه حتى يصل إلى أذن السامع كاملا ، فلا يغيب منه منه كثير من خصائصه أثناء انتقاله من فم المتكلم إلى أذن السامع خلال الأثير . والهواء هو الوسط الذى يحمل الصوت برنينه ونغماته إلى المتلقّى ، وهذا الوسط الناقل للصوت تتداخل معه مؤثرات مختلفة تؤثر على الصوت الضعيف، ومن ثمّ فإننا نرى أن الجهارة تقوى على مغالبة المؤثرات الأخرى التى تخالط الصوت ، فلا ينتقص من صفات الصوت ما يفسد الأثر المرجوّ منه . هذا بالإضافة إلى أن الصوت الجهورى ينم عن شخصية صاحبه القوية التى غالبا ماتؤثر فى سامعيها. وجهارة الصوت تعتمد على طول وقوة شد الوترين الصوتيين وما يحيط بهما من حجم الهواء المتردد داخل تجاويف جهاز النطق، كما تعتمد الجهارة أيضا على قوة دفع الهواء الخارج من الرئتين كما تتأثر الجهارة بمدى صلابة أو رخاوة أعضاء النطق المختلفة ، ولسنا نقصد بالقوة هنا ارتفاع الصوت فقط بل أيضا ملاءمة الصوت المؤدى بدقة للمعنى المراد إبلاغه إلى ذهن السامع .

ومن ملامح هذه الملكة أيضا « الرنين » وهو تردد الصوت خلال تجاويف أجهزة النطق ، ورنين الصوت يكون مؤثرا وجيدا كلما اتسعت تلك التجاويف التى يتردد بها الهواء ،وللرنين أثر كبير فى إبراز الصوت الذى يُرجى منه إيضاح المعنى ، ومن ثمّ فإننا نرى أن المتكلم الذى فى صوته رنين أكثر تأثيرا من غيره . لأن الصوت الذى يتميز بالرنين يترك أثرا موسيقيا فى أذن المتلقّى ذلك الأثر الذى يرجح كفة صاحبه .

ومن ملامح تلك الملكة أيضا قدرة صاحبها على معرفة المواضع التى يحسن فيها إبراز النبر أو الارتكاز وهى مهارة يتميز بها صاحب هذه الملكة الذى يدرك الأثر الناتج عن الملاءمة بين إبراز الصوت ومعناه ،والمواقف التى تكون مناسبة

لذلك ، وكذلك المواقف التى يحسن فيها التنغيم ، وسنتناول دور الارتكاز Stress ودور التنغيم Intonation فى الفصل الذى سنكتبه عن العلاقة بين الفصاحة وعلم الأصوات اللغوية إن شاء الله .

وهناك عوامل أخرى غير لغوية لها دور كبير فى فصاحة المتكلم وهى عوامل نفسية واجتماعية ، وهذه العوامل تتصل بالمتلقى أيضا . أما ما يخص المتكلم فأهمها فى رأينا — مدى تعاطف المتكلم مع الكلام المراد تأديته ومدى انفعاله به ، وهذه الناحية تخص الخطيب والممثل المسرحى أيضا ، ولقد قال عامر بن عبد قيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان[١٧٧] » .

ومن العوامل النفسية والاجتماعية أيضا قوة انتماء المتكلم إلى المستمعين ، وازدياد الترابط بينه وبينهم مما يؤثر كثيرا فى أدائه وانفعاله .

ومن تلك العوامل مكانة المتكلم الاجتماعية وحسن مظهره ومدى وسامته ، لكن سهل بن هارون يخالف ذلك مع ما كان يتمتع به من مكانة اجتماعية وسياسية وأدبية ، وما يوصف به من جمال الصورة واعتدال القامة وفصاحة اللسان ، وقد قال فى ذلك : « .. لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا جليلا بهيّا ، ولبّاسا نبيلا ، وذا حسب شريفا ، وكان الآخر قليلا قميئا ، وباذّ الهيئة دميما ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلامهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدّع عنهما الجمع وعامتهم تقضى للقليل الدميم على النبيل الحسيم ، وللباذّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه به ، ولصار التعجب منه سببا للعَجَب به ، ولصار الإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر

---

(١٧٧) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٣ — ص ٨٤ .

منه خلاف ما قدّروا ، وضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع .. والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد ، وليس لهم فى الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى ، مثل الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكلّ ما كان فى ملك غيرهم[١٧٨] » .

وقد يكون رأى سهل بن هارون هذا جائزا عند العامة ، لكن العلماء والنقاد يستطيعون التخلص من الهوى ومما يستهوى العامة ، ولقد تدارك سهل بن هارون هذه الحقيقة بعد ذلك عندما تكلم عن انقسام آراء الجمهور نحو كلام الخليفة أو العظيم من الناس ، وهما قسمان : قسم يعطى الكلام من التعظيم والتبجيل والاكبار بقدر مكانة قائله ، وقسم ينتقص من حق الكلام حتى يبدو أمام الناس عادلا .

ويقرر سهل بن هارون أنه « .. لا يعرف حقائق مقادير المعانى ، ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوى المنّه ، الوثيق العقدة ، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر[١٧٩] » .

ومن العوامل المتعلقة بالملكة التى يتميز بها المتكلم الفصيح القدرة على استغلال الموقف وطُرُق الحديد وهو ساخن كما يقولون ؛ وهذا يتصل بما تردد عند البلاغيين عن مقتضى الحال ، والمقام والمقال ، ومراعاة حالات السامعين .

وهذه العوامل كلها تكوّن الملكة التى يتمتع بها الفصيح المتكلم ، وهى

---

(١٧٨) البيان والتبيين ص ٩٠ ـ ص ٩١ .
(١٧٩) البيان والتبيين جـ ١ ص ٩٠ .

عوامل لغوية وغير لغوية ، وكلها تساهم فى تحقيق الهدف المرجوّ ، وهو إيصال المعنى المراد إلى ذهن السامع بصورة معينة . وهذا ينطبق على المتكلم الفصيح حتى ولو كان الكلام ليس من إبداعه،فالخطيب الذى يلقى خطبة من إنشائه بألفاظ فصيحة ومتمتع بملكة الفصحاء هو متكلم فصيح ، وكذلك الممثل المسرحى الذى يلقى كلاما فصيحا ليس من إنشائه إلقاء كاملا يعد متكلما فصيحا ، أما مؤلف المسرحية الفصيحة نفسه لا يعد متكلما فصيحا إلا إذا قام بأداء أحد أدوارها أداء كاملا .

ففصاحة المتكلم تتعلق بطريقة الأداء قبل الإنشاء الكلام لأن إنشاء الفصيح يتعلق بفصاحة الكلام وبلاغته .

وسنعالج — إن شاء الله تعالى — فى الجزء التالى بعض القضايا التى أشرنا إليها فى فصاحة المتكلم بشىء من التفصيل ، ومن زاوية أخرى .. والله الموفق .